غداً الذي أتمناه
حنان حنفي أحمد
Achnaimat Ahlam

نوفيلا غدا الذي أتمناه

بقلم

حنان حنفي أحمد

مقدمة

هناك من تنتقل به الحياة من حال إلى حال، يتأرجح بين مطباتها العسيرة ويظن أن الأمل بعيد المنال، لكن رسائل الله تأتي لتبشر بخير وفير وغدا أفضل يحمل بشائر لا حصر لها.

غذا الذي أتمناه.

الفصل الأول

كان العمل بمنزل عبد الكريم البسيط يجري على قدمٍ وساق، لقد قرر عبد الكريم أن يضع حد لفقره المدقع، وأن يكسر حاجز النحس الذي يحيط به من كل جهة، كان الجميع يباركون له على مشروعه الجديد وهم

يتغامزون ويتلامزون فيما بينهم، كان يعرف بما يدور بخلدهم، هم لا يعلمون كيف يفكر وكيف سيدر عليه مشروعه التافه هذا من وجهة نظرهم المال الوفير، نظر نحو فتياته الثلاثة وشعر بغصة في حلقه لأنه لم يكن لديه ابن يحمل اسمه من بعده، ربما هذا ما جعله يزهد في أن يكتنز المال ليبتاع قطعة أرض لتكون ملكه وباسمه؛ فماذا سيفعل بالأرض وهو ليس لديه ابن ذكر يحمل اسمه، حاول أن ينفض عن ذاكرته تلك الذكرى الأليمة، ثم أخذ يفكر من مِن الفتيات ستكون مسؤولة عن هذا المشروع أثناء غيابه في العمل، تذكر على الفور نعمة ابنته الرابعة، والتي لم تكن موجودة بينهن؛ نظرًا لأنها كانت تنزل صباحًا لتبتاع حاجيات المنزل؛ فقد كانت والدتها تستعين بها دومًا في هذه الأمور؛ نظرا لأنها كانت الفتاة النشيطة من بينهن، ثم توقف عبد الكريم عن التفكير وقال: ليس هناك غيرها، نعمة ستكون المسؤولة عن هذا المشروع.

أخذت نعمة تتهادى في خطواتها وهي تحمل فوق رأسها ما ابتاعته من السوق، كانت سعيدة بنظرات الإعجاب التي كانت تراها في أعين الشباب كلما قابلت أحدهم، ثم ضحكت من قلبها عندما أخذ يتطلع إليها أحد شباب القرية وهو يستقل دراجته، ثم لم ينتبه إلى طريقه بسببها فوقع بالترعة، كانت تعلم تأثير جمالها عليهم، وتعلم أيضًا أن خُطابها كثيرين، ولكن والدها لم يوافق على أي منهم؛ بسبب أنها الأصغر من بين اخواتها ولم يتقدم شاب واحد لهن بعد، كانت تفكر وما ذنبها إن كانت اخواتها لا يمتلكن وجه جميل مثلها؟.. ولكن تلك هي لعنتها وعليها أن تنتظر دورها، لمحتها صباح بائعة الحليب وقالت لها:

ـ كيف حالكِ يا حزينة؟

ـ بخير حال يا خالة

قالت صباح بسخرية:

ـ مبارك عليكم مشروع الألعاب الذي ابتاعه والدكِ

ـ مشروع الألعاب؟!

ـ بلى.. لقد تأكدت اليوم من أن والدك مجنون حقًا

تجهمت نعمة وقالت تدافع عن والدها:

ـ لا تقولي ذلك يا خالة على أبي

ـ والله لا أفهم كيف بوجهه القبيح هذا؛ أن يلد فتاة في مثل جمالكِ؟!

وبرغم إطرائها عليها إلا إنها لازالت تخطىء في والدها فقالت نعمة بتحفظ:

ـ أستأذنك لأنني في عجلة من أمري.

وغادرت نعمة تحت أنظار صباح الحاقدة لها؛ فكم تمنت أن يتقدم لابنتيها ثلث العرسان الذين يتقدمون لها.

وطوال طريق عودة نعمة إلى منزلها كان يُلقي أهالي القرية على مسامعها المباركات الساخرة بسبب مشروع والدها الجديد.

وصلت نعمة إلى الدار لتجد الصبية يتجمعون أمام باب حجرة الاستضافة، كانوا يتشاجرون أيهم من سيلعب أولًا، نظرت نحوهم بدهشة ثم دخلت دارها، استقبلتها حُسنية بالكلام الاذع واللوم على تأخيرها ونهرتها كالعادة برغم عدم تقصيرها في شراء جميع ما طلبته منها، ثم طلبت منها أن تذهب من فورها لوالدها لتساعده في عمله الجديد، قالتها بسخرية مما جعل نعمة تذهب على الفور لترى ماذا أحضر والدها.

دخلت نعمة غرفة الاستضافة بصعوبة بسبب الازدحام عليها، وعندما لمحها عبد الكريم قال:

ـ هلمي يا نعمة، تعالي انظري ماذا أحضرت

أخذت تنظر نحو الطاولة التي تتوسط الغرفة وبها مضربين وكرة، ثم قالت:

ـ ما هذا يا أبي؟

ـ إنها طاولة بينج، مشروع والدك الجديد

ابتسمت نعمة وقالت:

ـ وهل هذه الطاولة تعد مشروع يا أبي؟!

ـ بلى بالطبع، انظري إلى الخارج لتعلمي كم سيكون الإقبال عليها حافل

ألقت نظرة سريعة عليهم ثم قالت:

ـ معك حق يا أبي

ـ انظري يا نعمة.. أنا سأجعلكِ أنتِ المسؤولة عن هذه الطاولة؛ فأنتِ الوحيدة من بين اخواتك التي تفهمين في الحساب، وأنا أريدكِ أن تكوني المسؤولة عنها في غيابي

ـ ولكن يا أبي أنت تعرف أن أمي لا تنفك تطلب مني طلبات كثيرة، حتى إنها لا تكلف اخواتي بأي منها

ـ اتركِ والدتك عليّ، هذا المشروع سيدر علينا بالمال الوفير، وأنا أريد أن أرتاح قليلًا من العمل والخدمة بالمدرسة

ـ حسنا سأساعدك يا أبي حتى يكبر هذا المشروع

ـ ما أريده منكِ أن تكتبي بهذا الدفتر كل جنيه سيدخل، وأن لا تسمحين لأحد باللعب دون نقود، أعلم أن قلبك طيب وربما يأتي من يستعطفك و..

قاطعته قائلة بحسم:

ـ لا تقلق يا أبي العمل عمل، لا تحمل هم لأي شيء

لمعت عينيه وقال:

ـ إن نجحت هذه الفكرة سأفتح سايبر أيضا ونكون من أغنياء القرية.

وافقت حسنية على مضض على طلب زوجها بأن تترك نعمة لتتفرغ لهذا المشروع نظرًا لقبول وجهها الذي يجذب الناس لها على الفور، أقنعها بأعجوبة؛ بالرغم من أنها كانت تود لو إحدى الفتيات هي من تعمل عليه لعل أحد الشباب يراهن ويطلبوهن للزواج، فقد تعدى عمر أكبر فتياتها الرابعة والعشرون وتخشى عليهن من العنوسة، وكلما رأت العرسان وهم يتوافدون على نعمة كانت تمقتها أكثر.

كانت نعمة سعيدة بعملها الجديد، لم تكن تسمح لأحد بأن يلعب دون أن يدفع؛ حتى هذا الشاب الذي استضافه والدها وعرض عليه أن يلعب مع الشباب دون نقود، وما إن أعطاها والدها ظهره طلبت منه النقود، لم تفهم نظراته الغريبة لها والتي لم تكن تشبه نظرات الاعجاب كالتي رأتها في أعين شباب القرية، اندهشت أيضًا أن والدها استضافه بتلك السهولة وهو الذي لم يرحب بشخص غريب من قبل، وعلمت بعد ذلك أنه من عائلة ذاع صيتها من قرية تبعد عنهم مسافة ليست بالقريبة، ولكن مع الأسف بعد وفاة والده والذي كان كبيرهم؛ باعت عائلته أرضهم وحاصرتهم الديون.

ذاع صيت طاولة البينج وأقبل عليها الكثيرين من شباب القرية وأيضًا كثر معهم خُطاب نعمة، وازداد دلالها وتمنعها عنهم؛ إلى أن استهوتها نظرات حسن وآلفتها؛ ذلك الغريب الذي لم يستوطن القرية فقط فقد استوطن قلبها، وكلما رآها ألقى على مسامعها معسول الكلام، لم تأخذ نعمة الكثير من الوقت ولان قلبها له فلم تعد تقاوم، وباتت تحلم باليوم الذي سيجمعها به، طلبت منه أن يتقدم لطلب يدها فقال لها:

ـ ولكن أنتِ تعرفين أن والدك لن يوافق أن تتزوجي قبل اخواتك.

كان معه حق ولكنها قررت أن تحاول مع والدها، تحدثت معه وحاولت اقناعه، ولكنه رفض رفضًا قاطعًا، امتنعت عن النزول إلى العمل احتجاجا منها، ولكنها تعرضت على يد أبويها للضرب والإهانة، تحملت كل ذلك ولكن مالم تتحمله هي معرفتها للحقيقة المُرة ذات يوم حينما كانت تتلصص على والديها وسمعت ما لم تكن تتخيله، كانت والدتها تقول لوالدها:

ـ هذا العريس خسارة أن يضيع من بين أيدينا

ـ وماذا تريدين أن أفعل؟

ـ اعرض عليه أن يتزوج من ابنتنا الكبرى وفي المقابل زلل له الكثير من العقبات ليوافق

ـ ونعمة.. ماذا أفعل معها؟

ـ لا تحمل هم لها أنا كفيلة بها لأخرسها.

سمعت واندهشت من حديث أمها، تساءلت لماذا تعاملها هكذا وهي ابنتها هي الأخرى، كيف تجرح قلبها بدمٍ بارد هكذا؟!

اكتئبت نعمة بعدها ولم تعرف ماذا تفعل، ثم ذات يوم تسللت من خلفهم وذهبت لتقابل حسن، قصت عليه كل ماسمعته من أبويها، صدمها قوله:

ـ مع الأسف ليس بيدي حيلة يا نعمة؛ فقد جاء والدك وقابل عمي وتحدث معه وعرض عليه عرض لا يرفضه أحد؛ لذا وافق عمي عليه على الفور

قالت بلوعة:

ـ أي عرض؟

ـ لقد اتفقا على أن اتزوج من شقيقتك الكبرى وفي المقابل سيساعد عمي في سداد بعض من ديون العائلة، وليس هذا فقط فقد قررا أن يتشاركا في قطعة أرض

ـ وأنت.. ماذا كانت ردة فعلك؟

نظر نحو الأرض وقال بأسف:

ـ ليس بيدي شيء لأفعله، أنا مضطر أن أفعل ما تريده العائلة مني

قالت بغضب:

ـ لقد خيبت ظني فيك يا حسن

ـ يا نعمة أنا..

ـ كفى، أنت مثلهم لا تفكر سوى بالمصلحة، أنا نادمة كثيرا على حبي الكبير لك.

ثم تركته وغادرت، لم تكن ترى أمامها من كثرة دموعها فانكفأت على وجهها، أخذت تبكي بقوة ثم لمحت فراشة لونها أخضر تطير حولها، أخذت تراقبها وتمنت لو كانت مثلها حرة تطير هنا وهناك دون قيود أو هم يثقلها.

****

لم تستطع حسنية أن تتحمل نعمة وتمردها أكثر من ذلك، خاصة مع معاملتها السيئة لها ولاخواتها، ولم يعد الضرب يجدي نفعا معها، وذات جلست مع عبد الكريم وقالت له:

ـ أنا ما عدت أطيق هذه الفتاة

ـ لا تحملي همها، لقد باتت أيامها معنا هنا معدودة

لمعت عينيها وقالت:

ـ كيف ذلك؟

ـ هل تذكرين الموضوع القديم الذي كنتِ دوما تحدثينني فيه؟

ـ نعم.. هل اقتنعت أخيرا؟

ـ بالطبع اقتنعت وعن قريب ستتخلصين منها ومن معاناتك معها

ـ ولكن نعمة كالبيضة الذهب كيف تتخلى عنها بهذه السهولة، ثم إنها الوحيدة من بين اخواتها التي تساعدني وتمرضني؟!

ـ من قال أنني ساتخلى عنها بسهولة؟، أنا سأحصل مقابلها على مبلغ لا بأس به

ـ وماذا سنقول للناس عندما يسألون عنها؟

ـ نبتدع أي كذبة، من الممكن أن نخبرهم بأنها مريضة بمرض نادر وأنها سافرت إلى الإسكندرية لتمكث عند عمتها لتخضع للعلاج هناك

ـ فكرة رائعة

ـ أراكِ سعيدة ومُرحبة بالفكرة الآن!!

ـ لقد بارت فتياتي بسببها، لعل في ابتعادها عنا خير ويتقدم لفتياتي العرسان الذين كانوا يتقدمون لها

شرد عبد الكريم قليلًا وقال:

ـ لقد ورثت الحزينة جمال أمها

قالت بحدة:

ـ حذاري أن تأتي على ذكر سيرة تلك الراقصة

ـ أمازلتِ تذكرينها؟

ـ لم أنسى يوما واحدا أنك خنتني وتزوجت عليّ.

ثم أكملا حديثهما ولم يعلما أن نعمة كانت تتلصص عليهما كعادتها مؤخرا، شعرت بصدمة كبيرة مما سمعته، فقد كانت حياتها يحيط بها الزيف من كل جهة ولم تعد تعرف أين هي الحقيقة.

في الأيام التي تلت ذلك انطوت على نفسها واعتزلت العالم أجمع، تحملت الضرب والاهانة مما كانت تعتقد أنها أمها، بعدها نزلت إلى العمل على مضض ولم يخفى على أحد ذبولها، أصبحت ترى الكوابيس في الليل، وترى خيالات بالنهار، كانت تشعر دوما بأن هناك من يراقبها؛ بل وقد لمحت بالفعل شخص غريب يراقبها من بعيد ولكنها لم تعد تهتم لأي شيء، لقد أرادت أن تعرف حقيقة نسلها ولكن ما آل إليه حالها جعلها في حالة سيئة وكأنها غائبة عن الوعي، وذات يوم أمسكت بسُم الفئران وكادت أن تبتلعه في محاولة يائسة منها للتخلص من حياتها، ثم دخلت حسنية عليها لتنهرها وتضربها وتسمعها أبشع الألفاظ كعادتها، وفي اليوم التالي وجدت والدها يجهزها ثم أخذها معه وعندما سألته إلى أين لم يرد عليها، سلمها بعد ذلك لرجل في متوسط العمر لم تراه من قبل، وبرغم تنبؤها بحدوث شيء سيء؛ إلا إنها لم تكن بحالة تسمح بالاعتراض، أخذها هذا الرجل معه بسيارته ومضى بها في طريق طويل تمنت لو ينتهي.

****

الفصل الثاني

توقفت السيارة أخيرا أمام فيلا فخمة، كانت تبعد كثيرا عن أي مظهر من مظاهر الحياة، لفتت انتباه نعمة رغم شرودها، لم تعد تستطيع التظاهر بعدم الامبالاه، فطوال الطريق كانت تعرف أنها في طريقها إلى القاهرة بازدحامها وضوضائها، كانت على عكس قريتهم كليا، وعلى الرغم من رغبتها طوال عمرها أن تسافر إلى القاهرة؛ الا أنها اليوم تخشى كثيرا منها.

انتبهت لذلك الرجل وهو يفتح باب السيارة ويقول لها:

ـ هيا معي.

لم تسأله إلى أين، اكتفت بنظراتها التائهة، كان كل شيء حولها يشي بنعيم لم ترى مثله من قبل، فيلا جذابة تحفها حديقة مساحتها لا بأس بها، لمحت حمام سباحة ومكان واسع يسمح بالركض، لمحت أيضا بعض الفراشات تطير هنا وهناك؛ فسمعت دقات قلبها تعلو وتتزايد تريد منها أن تطير مثلها.

ما إن دلفت إلى داخل الفيلا؛ شعرت بالرهبة وتمنت لو تعود من حيث أتت؛ لولا أن سمعت صوت سيدة في الخمسين من عمرها تقول:

ـ مرحبا يا جلال، من هذه الجميلة التي معك، هل هي خادمة جديدة؟

شعرت بغصة في حلقها من جراء كلماتها، سألت نفسها:

ـ ألهذه الدرجة مظهري يُرثى له؟

قال جلال:

ـ إنها ضيفة ينتظرها عبد الحميد باشا

ابتسمت بدرية بخبث وقالت:

ـ تفضلا انتظرانه حتى أعطي له خبر.

ثم غادرت بعد أن ألقت على نعمة نظرة؛ كانت خاطفة ولكنها كانت كفيلة ببث الخوف في قلبها.

جلست نعمة تنتظر، لم تكن تعلم من تنتظر ومن عبد الحميد باشا هذا، وهل أولئك الناس سيكونوا أحن عليها من والديها، ثم نزلت دمعة حارة على وجنتها؛ عندما تذكرت أن من كانت تظن أنها أمها طوال عمرها اكتشفت أنها ليست ابنتها، وأن أمها راقصة، لم تكن تعرف تفاصيل أكثر عنها وهذا جعلها تائهة لا حول لها ولا قوة. خرجت من شرودها على صوت عكاز يدب على الأرض، ورأت جلال يهرول نحو هذا الشخص الذي يبدو عليه الوقار، ثم مال جلال على أذن هذا الرجل وطال همسهما، ثم نظر نحوها الرجل بفضول وكادت نعمة أن تجزم أنها لمحت بعينيه نظرة حنان وعطف اتجاهها، ثم انتهى همسهما وأقبل جلال نحوها وقال:

ـ هيا معي لتخضعين للفحص قبل استلام عملك

سألته بخفوت:

ـ عملي؟

ـ نعم فأنتِ ستعملين هنا لدى عبد الحميد باشا.

جلست نعمة في استسلام تخضع لذلك الفحص، أخذت تفكر كيف بعد أن كانت فتاة حرة ستعمل الآن خادمة؟! شعرت بحزن شديد على ما آل إليه حالها، لم تكن تعرف ما ذنبها ليفعل الجميع بها ما يحلو لهم دون أخذ رأيها ومشورتها، أفاقت من شرودها على غرز إبرة بذراعها؛ تأوهت ونزلت عبراتها تعلن عما بداخل قلبها، أشفق عليها الممرض وقال:

ـ لقد كدنا أن ننتهي.

قالت في نفسها ليت وجعي ينتهي، أشعر أنه بلا حدود.

تلفت الممرض حوله بحذر ثم سألها بفضول:

ـ هل أنتِ من هنا؟

اكتفت بتحريك رأسها بالنفي، ثم قال:

ـ هل تعرفين عبد الحميد باشا؟

اندهشت من تكرار لقب الباشا الذي تردد أكثر من مرة على مسامعها؛ في حين عصر البشوات انتهى، ولكن على مايبدو أنه في هذا المكان لم ينتهي بعد، وهذا لا ينبىء بخير.

دخل جلال عليهما وقال:

ـ هيا يا دكتور لقد أطلت كثيرا

قال الممرض بارتباك واضح:

ـ لقد انتهينا للتو.

ثم أخذ يجمع حاجياته، وفي خلسة من جلال مال نحوها وقال سريعا:

ـ أنا عادل أعمل بمشفى قريبة من هنا، إن احتجتِ مني شيئا لا تترددي.

قال جلال بصوت مرتفع:

ـ هيا يا دكتور، ما كل هذا التأخير؟!

أغلق الممرض حقيبته، وابتسم بمرارة عندما سمع كلمة دكتور، فهو كان يعمل ممرضا ولكن بعض الناس يلقبونه بالدكتور في لفتة جميلة لم يرى مثلها من زملائه الأطباء الحقيقيين.

****

أخذ جلال نعمة إلى غرفتها التي ستمكث بها، لاحظت أنها في الدور الأرضي من الفيلا، كانت قريبة من الحديقة وبعيدة عن الغرف الكبيرة بالطابق العلوي، ماذا كانت تنتظر من غرفة خادمة، عندما دلفت إلى الحجرة؛ انتابها شعور بعدم الراحة، نظرت حولها بفضول، كانت الغرفة واسعة وبها دورة مياه صغيرة وبها القليل من الأثاث، يتوسطها سرير كبير؛ فور أن وقع نظرها عليه اندهشت من كبر حجمه؛ فهي حجمها صغير لن تشغل ربعه، ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تتسائل عن كبر حجمه بهذا الشكل!

انتشلها من تفكيرها قول جلال:

ـ هذه هي غرفتك أرجو أن تلتزمي الوجود بها ولا تخرجين منها إلا عندما نستدعيكِ

أومأت برأسها فغادر هو على الفور، عاتبت نفسها أنها لم تسأله عن مصيرها هنا، ثم قالت تحدث نفسها: وهل كان ذلك سيفرق؟

جلست على السرير ولا مست يدها الشراسف التي كانت مصنوعة من الكتان ولها ملمس ناعم جميل، ولكن عندما تمددت عليه شعرت بعدم الراحة وكأنه كالشوك، زاد من ضيقها شعورها بالجوع؛ حيث أنها لم تأكل منذ فترة ومعدتها فارغة وقد أوشكت على هضم ذاتها.

سمعت طرقات على الباب فاعتدلت وسألت برهبة: من بالباب؟

دلفت السيدة وهي تحمل صينية من الطعام وقالت:

ـ لقد جئت لكِ بالغداء.

أسرعت نعمة نحو الطعام وتناولته بنهم، نظرت نحوها السيدة بدهشة وقالت:

ـ متى آخر مرة تناولتِ شيئا؟!

لم تجيبها نعمة فقد كانت مشغولة بالطعام وأجهزت عليه سريعا فسألتها بتهكم:

ـ ما رأيكِ بالطعام؟

قالت نعمة بخفوت:

ـ لا بأس به

قالت بعصبية:

ـ لا بأس به!، ماذا كنتِ تنتظرين يا حلوة؟

قالت نعمة تحاول تصحيح الموقف: أنا آسفة لم أكن أقصد، أنا فقط..

قاطعتها قائلة:

ـ لقد أعددت الطعام بنفسي وهذا شرف لكِ في حد ذاته؛ فالجميع هنا يأكلون من يدي وطعامي يشهد به الجميع، فهل تأتي أنتِ وتقولي أنه لا بأس به!

ـ أنا آسفة لم أكن أقصد

ـ للعلم فقط، أنا هنا في مقام مديرة هذا المكان بأكمله، وأنتِ ستكوني مساعدتي وتفعلين كل ما آمركِ به، هل هذا مفهوم؟

أومأت برأسها فاستطردت:

ـ بالمناسبة أنا اسمي السيدة بدرية ويجب أن تراعي الألقاب بيننا.. مفهوم؟

لم ترد عليها ثم كادت بدرية أن تغادر فاستوقفتها قائلة:

ـ كنت أود سؤالك، أين نحن هنا تحديدا؟

سألتها بسخرية:

ـ ألا تعرفين أين نحن؟

ـ لا فأنا من بلدة كفر الشيخ وهذه هي المرة الأولى التي أزور فيها القاهرة

ـ أنتِ من الفلاحين إذن، لقد لاحظت ذلك بالفعل، وأيضا لم أراكِ بالقرب من قبل

سألتها بنفاد صبر:

ـ أين نحن الآن بعد إذنك؟

ابتسمت وقالت بسخرية:

ـ في مدينة اسمها العبور، هل تعرفينها؟

ـ لا

ـ يبدو عليكِ أنكِ فتاة خام.

قالتها ثم غادرت، وجلست نعمة متكورة على نفسها تتسائل كم تبعد مدينة العبور عن كفر الشيخ بلدها.

****

بداخل غرفة كبيرة تبدو عليها الفخامة؛ جلس عبد الحميد يتطلع بحسرة إلى صورة امرأة رائعة الجمال، ثم قال يحدث صورتها المعلقة: أرأيتِ ابنتك وأفعالها، كل هذا نتيجة تدليلك لها، لقد تربت على عدم تحمل المسؤولية والتفكير في غيرها، لقد كانت عينيها دوما على حلمها وحريتها على حساب حرية الآخرين؛ فكانت النتيجة كارثية بكل المقاييس.

التزم الصمت قليلا ثم استطرد بندم:

ـ لقد بحثت عن داليدا كثيرا ولكني لم أعرف لها طريق، كانت عنيدة لذا نفذت ما أخبرتنا به، سافرت وابتعدت عنا حتى لا نعثر لها على طريق، كانت على يقين أنني فور عثوري عليها لن أغفر لها، لقد كانت تظن أنني سأقتلها لأنتقم مما فعلته، لقد كنت مستاء بالفعل ولكن ليس لدرجة القتل!، الآن أنا أفتقدكِ يا حبيبتي وأفتقدها هي أيضا، ليتني أستطيع التحكم في قلبي الذي ينبض بحبكما، ولكن متى كان القلب له أحكام؟!

لا تقلقي يا حبيبتي هذه المرة سأصحح الوضع، ولكن بعدما أتأكد ويرتاح قلبي؛ فأنا لن أكرر خطأي كما بالسابق، سأجعلك راضية عني.

تدافعت عليه الذكريات حين لحظة موتها بين يديه وهي تعاتبه وتطلب منه أن يسامح ابنتهما، ربما لو كان يعرف وقتها أنها لحظتها الأخيرة لكان طمئنها وغفر في وقتها، ولكنه كالعادة أصر على موقفه حتى أسلمت روحها لبارئها؛ عندها فقط شعر بندم لم يشعر بمثله من قبل.

****

استيقظت نعمة على ضوء الشمس يضرب عينيها، حاولت الاستيعاب أين قد تكون، ثم استدركت حالها، نظرت نحو النافذة، لم تكن تتذكر هل فتحتها بالأمس؛ أم أنها كانت مفتوحة منذ أن دخلت الغرفة، اعتدلت ببطىء بسبب ثقل شديد أصاب رأسها، ربما سببه أنها لم تنم جيدا؛ بسبب شعورها بعدم الأمان في هذا المكان، أو بسبب كثرة التفكير المستمر دون توقف.

نهضت وحاولت استكشاف غرفتها، كانت مساحتها واسعة لا بأس بها، جدرانها مطلية باللون البيج الفاتح، نظرت نحو الدولاب بفضول، كانت تريد أن تعرف هل بداخله ملابس أم لا؛ فقد جاءت بصحبة جلال دون حقيبة أو شيء يذكر، لم تتردد كثيرا، ذهبت نحو الدولاب وفتحته؛ لتجد به بعض الفساتين والتي لا تناسب مقاسها بالضبط، لفت انتباهها أن الملابس من النوع المحتشم فابتسمت رغما عنها، لقد كانت دوما ترتدي ملابس محتشمة، لم تكن هي من تنتقيها بل والدتها، أو من كانت تظن أنها والدتها، لقد حرصت على ارتدائها الحجاب أيضا؛ حتى تخفي جمالها وأنها أجمل من أخواتها، لم يكن لها ذنب في ذلك ولكنها دفعت ثمنه، وبآلية ألقت نظرة نحو الجلباب الذي كانت ترتديه، أرادت خلعه وتبديله بسرعة؛ حتى لا يذكرها بها وبتلك الأيام المريرة، الآن فقط أدركت سر هذا العداء الذي كانت تكنه لها، وتفضيل أخواتها عليها، سمعت طرقات على الباب انتشلتها من أفكارها، ردت بآلية من خلف الباب: من يطرق الباب؟

أجابها جلال بثقة:

ـ انا جلال، اجهزي سريعا لأطلعك على عملك ومن ثم تباشرينه اليوم

شعرت بالقلق فردت من خلف الباب:

ـ أنا متعبة اليوم، ألا يمكنني البدء في الغد؟

اندهشت من جرئتها وطلبها فهي في الأخير مجرد عاملة لديهم، ولا يحق لها الاختيار أو الامتناع عن العمل، أدهشها قوله:

ـ حسنا، ارتاحي اليوم وسنبدأ من الغد.

شعرت بالراحة قليلا ثم ذهبت لتغيير ملابسها.

****

جلس عبد الحميد بالشرفة، كان ينظر إلى الاشيء؛ هذا بالرغم من عشقه لحديقته والتي كان يستبشر برؤيتها في بداية يومه، كان يعشق اللون الأخضر الذي ينم على الفطرة ويريح عينيه، تذكر داليدا وعينيها ذات اللون الأخضر، كم كان يعشق النظر إليهما؛ إلى أن حدث ما حدث وحُرم منها، لعن في سره من كان السبب في بعدها عنه وتمنى لو تعاد تلك الأيام ليتصرف التصرف الصحيح دون خسارتها.

دخل جلال عليه وجده شاردا كعادته مؤخرا، أشفق على حاله وتمنى لو يستطيع مساعدته؛ حتى تعود البهجة إلى حياته من جديد، تنحنح قليلا ثم قال:

ـ عبد الحميد باشا، هل أنت بخير؟

نظر نحوه وقال:

ـ لن ادعي إنني بخير حال

ـ أعرف يا باشا، أعانك الله على مُصابك

ـ آمين

ثم زفر بقوة واستطرد:

ـ ماذا فعلت مع الفتاة؟

ـ لقد عرجت عليها قبيل مجيئي إليك لأعرفها على مهامها ولكنها استأذنت أن ترتاح اليوم؛ نظرا لأنها متعبة

ـ مما تشكو؟

ـ أعتقد أنها تهاب المكان وناسه

قال بتهكم:

ـ لا أظن ذلك خاصة بعد تحذير زوجة والدها بإخبارك أنها فتاة متمردة وعديمة التربية

ـ يا باشا اغفر لي تدخلي، ولكني أظن أن ما أخبرتني به غير صحيح

ـ ولماذا ستختلق عنها الأكاذيب؟

ـ لا أعرف تحديدا، ولكن ما علمته من أهل البلدة هناك أنها تعاملها معاملة قاسية وتفضل اخواتها الأخريات عنها

طرق بعصاه على الأرض بقوة وقال:

ـ بالتأكيد لأنها تستحق ذلك، ولكن ما باليد حيلة، لولا حاجتي إليها لكنت لفظتها كما..

بتر حديثه فجأة وآثر عدم التكملة، ثم قال:

ـ هل من أخبار عن راجي؟

ـ لقد أكد على حضوره قريبا فور انتهائه من بعض الالتزامات هناك في شرم الشيخ

ـ جيد جدا؛ لأنني ما عدت في صحة تسمح لي أن أدير الأمور هنا وحدي.

أخذ جلال يدعو له في سره بصلاح الحال وراحة البال اللذان غابا عن سماء حياته منذ فترة، وحل الظلام عليها مما جعله فريسة لأمراض شتى.

****

الفصل الثالث

انتهى جلال من تناول طعامه فانتهزت بدرية الفرصة ومالت عليه تسأله لتشبع فضولها من جهة نعمة قائلة:

ـ جلال من هذه الفتاة بالضبط، أنا أشعر أن وجودها هنا ليس كخادمة؟

ترك جلال ما في يده وقال:

ـ هي بالفعل ليست خادمة، إنها ممرضة خاصة لعبد الحميد باشا

ـ ممرضة؟! وهل هذه الفتاة تصلح كممرضة، إنها تبدو فتاة خام للغاية!

قال بنفاد صبر:

ـ عبد الحميد باشا هو من اختارها

ـ ولمَ هي تحديدا، لماذا لم يأتي بممرضة متمرسة؟

قال بعصبية وقد كره تدخلها المعتاد:

ـ فالتسألي عبد الحميد باشا

نظرت نحوه بضيق؛ فهو لم يرح بالها من قبل فهل سيفعل ذلك الآن، ثم قالت:

ـ أنا لن أسأله، له مطلق الحرية في اختياراته، ولكن عندما تسرقه هذه الفتاة أنا لست مسؤولة، وفي غالب الظن هي ستفعل ما يغضبه؛ لأنها فتاة غير مريحة بالمرة.

ضرب جلال كفا بكف في تعجب من تصرفاتها وتدخلها في ما لا يعنيها، ثم قال لها:

ـ لا تنسي أن تبعثي لها بالطعام

نظرت له شذرا وقالت:

ـ وهل سأفعل هذا كل يوم، لقد فعلت بالأمس لأنه كان يومها الأول، ولكن اليوم ما عذرها، هل هي هانم مثلا؟

ـ يا بدرية ترفقي بها قليلا إنها فتاة غريبة وتشعر بالغربة بيننا، ثم إنها تشعر بالمرض

ـ تشعر بالمرض وهي الممرضة، يا للعجب!

نهض ليغادر وأعقبها بقوله:

ـ لقد سئمت الحديث معكِ، أنتِ حقا امرأة لا تطاق، رحم الله زوجك الذي تحملك سنوات زواجكما معا.

نظرت له بغضب وقالت في نفسها: بل رحمني الله من تعنته وجبروته، كل الرجال على هذه الشاكلة إلا ما رحم ربي.

****

استيقظت نعمة في اليوم التالي وهي تشعر أنها في حال أفضل، لم تستاء من أشعة الشمس التي تسللت إلى غرفتها كما بالأمس، نهضت على الفور بنشاط، ثم وقفت أمام المرآة تتأمل وجهها الصبوح ببشرتها البيضاء النقية وعينيها الخضراء التي تميزت بهما؛ مما أثار التساؤلات حولها؛ فوالدها وزوجة أبيها لم يمتلكا مثلها، فكانت كالزرع الشيطاني لا يمت لهما بصلة.

سمعت طرقات على الباب فوقفت خلفه وقالت:

ـ من بالباب؟

جاءها صوت بدرية المتهكم:

ـ أنا يا نعمة هانم، لقد جئتكِ بالفطور فهل ستسمحي لي بالدخول؟

فتحت نعمة وقالت فور دخولها:

ـ صباح الخير يا سيدة بدرية

تجاهلت تحيتها وقالت:

ـ فور أن تنتهي من الفطور استعدي لأن الأستاذ جلال يريد رؤيتك في أمر ضروري

ـ ألا تعرفين لماذا يريدني؟

قالت بغيظ:

ـ كم كنت أود أن أعرف ولكنه حريص للغاية ولا يخرج كلمة من فمه دون حساب.

وجدتها شاردة وتشعر بالرهبة فاستطردت:

ـ لماذا أنتِ ساهمة على هذا النحو، إنه يريدك للعمل في الغالب؟

ـ حسنا سأذهب له في الحال

قبل أن تغادر قالت بدرية:

ـ اليوم هو الأخير الذي سآتي لكِ بالفطور هنا، ومن الغد ستتناولين معنا طعامك، مفهوم؟

ـ مفهوم يا سيدة بدرية.

غادرت بدرية بعصبية فسألت نعمة نفسها: ماذا فعلت لها لتعاملني على هذا النحو، وهل ينقصني في حياتي وجود أُناس مثلها؟ لقد ظننت أنني ارتحت من زوجة أبي ولكن هذه السيدة تعوض غيابها في حياتي مع الأسف.

تناولت نعمة فطورها ثم ذهبت من فورها إلى جلال، سألت عنه فعلمت أنه يجلس في مكتبه، ذهبت إلى هناك بخطوات مضطربة، فقد كانت تشعر بالقلق رغما عنها.

استأذنت منه أن تدخل فدعاها للدخول، جلست قبالته فقال بعد برهة:

ـ كيف حالك اليوم يا نعمة؟

ـ بخير

ـ كنت أود أن أسألك في شيء

ـ تفضل

ـ هل تفهمين في التمريض جيدا؟

ـ نعم فأنا معي دبلوم تمريض

ـ أعلم ولكني كنت أتأكد، ولذلك تم تعينك هنا الممرضة الخاصة لعبد الحميد باشا

ـ أنا؟!

ـ نعم

ـ لقد ظننت أنني سأكون الخادمة

ـ لا، لقد ارتأينا أن نعينك هنا كممرضة، فهل هذا مريح بالنسبة لكِ؟

ـ نعم كثيرا

ـ حسنا، سأطلعك على كل ما يخص مرض عبد الحميد باشا، ومواعيد أدويته لتكوني على علم بكل شيء

ابتسمت وبدا على وجهها الراحة مما جعله يقول لها:

ـ بالمناسبة أثناء وجودك مع عبد الحميد باشا؛ ممنوع الحديث فيما لا يعنيكِ، هل هذا مفهوم؟

ـ نعم، لا تقلق مني

ـ حسنا، هيا بنا لأطلعك على كل شيء.

كانت نعمة تستمع له بانتباه شديد، شعرت بالشفقة على الباشا الذي سكن جسده العديد من الأمراض، تساءلت ماذا حدث معه ليكون على هذا الحال؛ لقمة سائغة لأمراض مزمنة وأخرى خطيرة.

ذهبت مع جلال في جولة بداخل الفيلا وبالحديقة، أخذ يعرفها على كل شبر بها، وعرفها على الأماكن المفضلة التي يستريح الباشا بها ويقضي بها خلوته وقتما يشغله شيء، أخذت تنظر حولها منبهرة؛ فقد كان كل ما حولها عكس ما كان عليه دارها الذي نشأت به، لاحظت الكثير من الأثاث الراقي والذي كان يبدو وكأنه لم يلمسه أحد، وكأن الفيلا مهجورة لم يحيا بها نفس بشرية من قبل، وعندما كانا الاثنان بالحديقة؛ انشغلت بمنظر الفراشات وهي تطير هنا وهناك حول الورود، كانت الورود ملونة والفراشات مثلها في مشهد رائع خطف بصرها كما حدث من قبل، ولم تلاحظ جلال وهو يشرح لها آخر نقطة، ثم فوجئت به يقول:

ـ هل واضحة هذه النقطة؟

خشيت أن تخبره أنها لم تسمع شيئا مما قال فأومأت برأسها بالايجاب، فقال لها:

ـ حسنا.. طالما استعبتِ هذه النقطة لن تكون هناك مشاكل.

قالت في نفسها: مشاكل.. أية مشاكل، لقد ظننت أنني أخيرا ارتحت، ولكن ليست هناك مشكلة طالما أنني في حالي ولا أسبب المشاكل لأحد.

فور دخولهما للمطبخ أخذت بدرية تنظر لها بحقد مما أثار حفيظة نعمة التي كانت تمني نفسها أن تعش في سلام ولكن هيهات، عرف جلال بدرية لنعمة فقالت بابتسامة صفراء:

ـ غنية عن التعريف، لقد تقابلنا من قبل.

بعد ذلك أخذها إلى الطابق العلوي وشعرت ببعض الرهبة؛ عندما أصبحت وجها لوجه أمام عبد الحميد باشا.

قال جلال موجها حديثه له:

ـ لقد اطلعت نعمة على مهامها ياباشا، وهي جاهزة الآن لتباشر عملها

ارتبكت عندما شعرت أن الباشا ينظر نحوها، ودون أن ينطق بكلمة أشار لهما بأن يغادرا.

ما إن غادرا الاثنان سألت نعمة:

ـ هل الباشا بخير؟

ـ نعم، لمَ تسألين؟

ـ لأنه لا يتحدث كثيرا ويبدو شاردا

ـ هذه هي طبيعته، لا تشغلي بالك سوى بعملك فقط، مفهوم يا نعمة؟

أومأت برأسها ولكن كيف لا تشغل نفسها سوى بعملها وهي تعشق التفاصيل وفضولها يغلب على أغلب تصرفاتها!.

****

في اليوم الأول لم تسلم نعمة من معاملة بدرية الجافة لها وقد حاولت أن تتجاهلها قدر الإمكان، ثم عندما صعدت إلى الباشا في غرفته؛ قال لها بحدة:

ـ انتظريني بأسفل، ممنوع دخول غرفتي

أومأت برأسها وقالت بخفوت:

ـ أنا آسفة.

هبطت إلى الطابق السفلي بحزن بسبب معاملته الجافة لها، ثم انتظرته أمام مكتبه، لم تحاول الدخول فقد خشيت أن يعنفها.

رأته وهو يهبط السُلم بصعوبة فشعرت بالشفقة عليه، ثم عندما دخل المكتب دلفت خلفه وهي تشعر بالرهبة، كان حضوره ووقاره غالبا، كانت تشعر بالفضول نحوه خاصة بعد شمر عن ساعده الأيسر ورأت ندبة كبيرة، نظر لها شذرا عندما أطالت النظر إليها فباشرت بقياس الضغط له على الفور؛ ثم أعطته الحقنة، كان ينظر بالجهة الأخرى ثم سألها:

ـ هلمي، هل كل هذا الوقت من أجل حقنة؟

قالت له بثقة:

ـ لقد انتهيت منذ لحظات

نظر نحوها ثم إلى يده بدهشة وانتظرت أن يشكرها ولكن بدلا عن ذلك قال:

ـ يدك خفيفة، تُرى هل هي خفيفة في إعطاء الحقن فقط أم في شيء آخر؟

شعرت بمزيج من الإحراج والإهانة ولم تستطع أن تصمت عن ذلك فقالت مدافعة عن نفسها:

ـ يداي طاهرة لم تمس الحرام قط

ـ ومن قال أنني أقصد شيء سيء؟

ـ شعرت من حديثك بالاهانة، وأنا انسانة حرة لا أقبل بالاهانة

قال لها محذرا:

ـ أنتِ هنا لتخدميني فقط وأنا أفعل ما أشاء، ولن تأتي أنتِ يا حديثة العمر لتعرفينني كيف أتعامل مع أمثالك.

قالها ثم غادر إلى الحديقة وظلت هي مكانها تنظر إلى الاشيء، شعرت بالمهانة الشديدة ولعنت ما فعله بها أباها، فبعد أن كانت امرأة حرة أصبحت خادمة ذليلة وعليها أن تتقبل هذا الوضع رغما عنها.

عندما حان موعد الغداء جلس جلال على المائدة ثم سأل بدرية التي انتهت من وضع جميع الأطباق:

ـ أين نعمة، ألن تأكل معنا؟

قالت بتهكم:

ـ البرنسيسة نعمة لا تريد تناول الطعام، ربما تشعر بالتقزز منا

ـ أنا لا أفهم لم أنتِ متحاملة عليها على هذا النحو، من الممكن أن تكون مريضة؟

ـ مريضة!، إنها في العشرون من عمرها، فما بالي أنا وأنا أوشكت على الستون؟!، هكذا هم ابناء هذا الزمن، جيل فاسد نخره السوس مبكرا.

قالت الجملة الأخيرة بحسرة واضحة مما جعل جلال يبتلع كلماته؛ فقد تذكر عندما كانت تشكو له من قبل من ابنائها الذين تركوها، كل منهم قد اختار طريقه بعيدا عنها، فمنهم من سافر بعيدا ومنهم من تزوج وقاطعها بسبب زوجته التي طلبت منه ذلك، ولم يتبقى لها سوى الذكريات وعملها هنا.

ذهب جلال إلى نعمة، طرق بابها فأتاه صوتها حزين وهي تقول:

ـ من بالباب؟

ـ أنا جلال، جئت لاطمئن عليكِ، بدرية أخبرتني أنكِ متعبة

ـ نعم أشعر بالتعب قليلا، شكرا لسؤالك

قال بعد برهة:

ـ هل ضايقكِ أحد هنا؟

نهضت من على فراشها فقد شعرت بقلة الذوق وهي تحدثه هكذا من خلف الباب، فتحت الباب بهدوء ثم نظرت نحو عينيه تحاول أن تستشف منهما هل هو جاد في سؤاله وقلقه عليها أم لا؟

قالت له عندما شعرت بصدق مشاعره:

ـ نعم هناك من ضايقني ولكني لن أستطيع التحدث في الأمر

أومأ برأسه وقال:

ـ مفهوم، هل تودين التمشية قليلا في الحديقة؟

ابتهجت وقالت:

ـ هل هذا مسموح؟

ـ طالما أنتِ معي لا تحملي هم لشيء.

شعرت براحة كبيرة على أثر كلماته، فلم تقابل أحد من قبل قال لها هذا الكلام؛ حتى أباها الذي أنجبها.

مشت إلى جانبه في الحديقة وهي تشعر بالأمان يجتاحها، أخذت تنظر حولها تشاهد الفراشات وهي تحلق حول الزهرات الملونة، لاحظ جلال انبهارها فسألها:

ـ هل تعشقين الطبيعة؟

ـ نعم فأنا أشعر بالراحة كلما نظرت نحو الزرع والأشجار

ـ هل هذا بسبب طبيعة معيشتك بالقرب من الأراض الزراعية؟

ـ مؤكد له علاقة بالأمر، لقد كان الزرع هو ملاذي كلما شعرت بالحزن أو الضيق.

لاحظ مرارة حديثها فسأل نفسه مالذي مر عليها خلال عمرها القصير هذا؛ ليجعلها تشعر بالحزن هكذا، غلب فضوله ولم يحاول أن يسألها، آثر أن يسألها لاحقا، ثم سألها:

ـ ما انطباعك بعد يومك الأول؟

زفرت بقوة وقالت:

ـ لا انكر عليك، أشعر بالغربة و..

بترت حديثها عندما تذكرت كلمات الباشا الاذعة فقال هو بعد أن فهم مقصدها:

ـ لا تحملي هم لشعورك بالغربة، سرعان ما ستعتادين على العيش هنا، أما عن الباشا فهو طيب القلب ويدعي ما هو عليه

نظرت له بغير تصديق فاستطرد:

ـ إنه يظهر عكس ما في قلبه، ولكن بداخل قلبه طيبة تسع العالم بأسره

لمحت الحزن في عينيه وأرادت أن تسأله عن السبب لكنها تراجعت، ثم تمنت أن يكون كلامه حقيقي حتى تستطيع أن تحيا بسلام وكرامة بهذا المكان، تذكرت شيء فسألته:

ـ أستاذ جلال.. هل ستسمحون لي بزيارة أهلي بكفر الشيخ؟

علا وجهه الحزن ثم قال:

ـ هل مللتِ منا بهذه السرعة؟

ـ ليس الأمر كذلك ولكني أريد أن أعرف طبيعة وضعي هنا، فهل أنا حرة أن أختار وقت إجازة أفعل فيه ما أشاء أم لا؟

أخذ يفكر قليلا واحتار ماذا يقول لها فقد باعها أباها حرفيا بحفنة من المال حتى يتسنى له تجهيز فتياته الأخريات وتزويجهن، لم يرى في حياته أب بهذا الشكل، تخلى عن ابنته بصدر رحب دون غضاضة وكأنها ليست من صُلبه، أفاق من شروده على صوتها وهي تقول:

ـ الهذه الدرجة إجابة سؤالي صعبة؟

كاد أن يجيبها عندما سمع الاثنان صوت عبد الحميد باشا الذي احتل محل الهدوء الذي كان يعم المكان قبل قليل:

ـ جلال.. اصعد على الفور.

نظر جلال نحو نعمة التي انكمشت على نفسها وفطن أن الباشا يريده بشأنها، ثم ودعها وذهب إليه من فوره.

دلف جلال إلى غرفة عبد الحميد وقال بهدوء:

ـ افندم يا سيدي

سأله بحدة:

ـ ماذا كنت تفعل مع هذه الفتاة؟

ـ كنا نتمشى قليلا لأخرجها من حالة الحزن والضيق التي كانت عليها

ـ وما أدراك بحالتها تلك؟

ـ بدرية أخبرتني أنها ليست على ما يرام، وقد امتنعت عن تناول الطعام معنا

سأله بتهكم:

ـ ومنذ متي وأنت تتناول الطعام مع العاملين يا جلال؟

ـ يا باشا أنا..

ـ أنت ماذا؟

التزم جلال الصمت ولم يعرف ماذا يقول، كان يعلم جيدا أنه بمثابة الكتاب المفتوح له.

استطرد عبد الحميد:

ـ يا جلال أنصحك أن لا تتعلق بهذه الفتاة؛ فنحن لا نعلم عنها شيئا

ـ ولكنها قد تكون..

قاطعه قائلا:

ـ قد تكون يا جلال، هذا يعني أن الموضوع يجانبه شك، نحن لم نتأكد بعد من أنها هي المقصودة أم لا؛ لذا أرجوك حتى نتأكد من أمرها؛ يجب عليك أن تبتعد عنها ولا تعرها أي اهتمام

قال باستسلام:

ـ حسنا يا باشا كما تأمر.

قالها ثم غادر بحزن، لم يكن يريد موافقته على حديثه ولكن لم يكن أمامه سوى موافقته والتصديق على كلامه بهذا الشكل.

****

الفصل الرابع

مرت الأيام على نعمة برتابة، كانت تعمل دون إحساس؛ فقد ملت الجو العام بالفيلا؛ خاصة بسبب معاملة الباشا الجافة وأيضا بدرية؛ التي لا تفوت فرصة إلا وتنغصها بكلماتها الاذعة، وما زاد همها هو جلال؛ الذي ابتعد عنها وأصبح يتحدث معها في أضيق الحدود، لقد ظنت أنه الوحيد الذي يعاملها بمودة في هذا الفيلا ولكنه الآن يتجنبها تماما.

ذات يوم بعد أن ضاقت من معاملة الباشا لها؛ ذهبت إلى الحديقة، تلفتت حولها تتأكد من أن لا أحد يراها، كانت تريد الانفراد بنفسها بهذا المكان الخلاب قليلا، أخذت تراقب الفراشات عن كثب، جذبها أولوانها الجذابة، لم تشعر بنفسها وهي تغني وتردد كالأطفال: كان في فراشة صغنططة، لبسة بلوزة منقطة، على جونلة مخططة..

كانت سعيدة وهي تغني للفراشات اللاتي تطايرن حولها في مشهد مبهج لن يتكرر، لم تشعر بأن هناك عينين تراقبنها بفضول، أخذت تلف وتلف حول نفسها وهي مغمضة العينين ولم تشعر بنفسها وهي تصطدم بشخص، فتحت عينيها بخوف ونظرت تتبين من هذا الشخص الذي اصطدمت به، وجدته شاب يبدو في أواخر العشرينات من عمره، كانت عينيه تحمل عداء واضح لها مما جعلها تقول برهبة:

ـ أنا آسفة، لم أكن أقصد ما حدث، أنا..

قاطعها بحزم:

ـ احترسي في المرة القادمة.

هم بأن يغادر وقبل أن تتنفس الصعداء وجدته توقف ثم قال لها بجدية:

ـ هل مسموح لكِ بالتجول هنا؟

اندهشت من سؤاله ولكن لم يكن له سوى معنى واحد؛ أنه من أهل البيت، استدركت حالها وقالت بتلعثم:

ـ لقد.. لقد كنت أتمشى قليلا بعد دوامي.

غادر دون أن يعيرها اهتمام، تنفست الصعداء وتمنت ألا يذكر للباشا وجودها بالحديقة، ثم أسرعت على غرفتها وقد قررت ألا تغادرها حتى اليوم التالي.

***

جلس عبد الحميد يتطلع إلى راجي الذي انشغل بالحديث مع جلال فور رؤيته، سئم من طول حديثهما عن عمله بشرم الشيخ، تدخل أخيرا وقال:

ـ كم ستمكث معنا هذه المرة يا تُرى؟

ـ ربما لأسبوع أو أكثر على حسب العمل هناك؛ فإن حدث وتطلب سفري سأسافر على الفور

ـ ألم أخبرك في الهاتف أن تتخذ اجراءاتك بحيث تمكث معنا أطول فترة ممكنة؟

ـ لقد حاولت يا عمي صدقني، ولكن كما تعلم وجودي هناك ضروري، لا تنس أنني حديث العهد بهذا العمل، والشراكة بيني وبين صديقي تلزمني الوجود هناك والكد في العمل مثله تماما

ـ أنا لست ناسيا، ولكن أنت من نسيت الظرف الذي أنا فيه الآن

ـ لا على الإطلاق، والدليل أنني جئت على الفور عندما علمت برغبتك في رؤيتي

ـ الأمر هام هذه المرة، ألم يطلعك جلال على كل شيء؟

نظر راجي نحو جلال وقال:

ـ لقد شرح لي الخطوط العريضة

ـ وما رأيك؟

ـ لا أستطيع التحديد قبل أن أرى نتيجة التحليل أولا

ـ هذا ما أخبرت به جلال، وبالمناسبة هو يميل إليها ويعاملها كما لو أنها..

قاطعه جلال:

ـ يا باشا.. أنا أعاملها بما يرضي الله فقط

قال عبد الحميد بتهكم:

ـ يبدو أنه أُعجب بها كما كان معجب بوالداتها من قبل

تغير وجه جلال إلى العبوس وشعر بالحرج فاستأذن من فوره، نظر راجي نحو عمه وقال:

ـ لمَ يا عمي أحرجته أمامي هكذا؟

ـ ليفيق من غفلته، صدقني يا راجي إنه لم ينسى حبه الأول، هو لايزال يحيا على ذكراه، وقد لمحت بعض من ذلك الحب في عينيه فور رؤيته لهذه الفتاة

شرد راجي قليلا وسأله:

ـ ما اسمها بالمناسبة؟

ـ نعمة

ـ وهل هذا اسمها الحقيقي، أقصد ما أطلقته عليها أمها؟

ـ بالطبع لا، أنت تعلم كم كانت تحب المظاهر والاستعراض، اسمها الحقيقي قبل أن يغيره والدها الغبي كان إقليمياء

ـ ماذا؟

ـ إنه اسم الابنة الأولى لسيدنا آدم عليه السلام، والتي استمات قابيل وقتل شقيقه من أجل أن يتزوجها

التزم راجي الصمت فسأله:

ـ هل صادفتها بالأسفل؟

ـ نعم

ـ وما رأيك فيها؟

ـ لن أقول رأيي من خلال نظرة واحدة، دعني أحكم عليها من واقع خبرتي.

نظر عبد الحميد له بريب وشعر أن خبرته التي يتفاخر بها على هذا النحو غير مجدية، أو على الأقل هذه المرة.

****

حاولت نعمة النوم مرارا دون جدوى، ظلت تتقلب في الفراش لما يقرب من الساعة، وكلما حاولت أن تغلق عينيها ترى هذا الشاب وهي تصطدم به، حاولت أن تتذكر ملامحه ولكن دون جدوى، حيث أنها من شدة خوفها حلت على عينيها غشاوة بسببها لم تتبين ملامحه جيدا، سمعت طرقات على الباب فشعرت بالخوف وتدثرت بالغطاء حتى رأسها، ثم بعد عدة طرقات سمعت صوت جلال يقول:

ـ نعمة.. نعمة.. هل أنتِ بخير؟

شعرت بالذنب بسبب قلقه عليها لأنها لم تحضر لتناول الطعام؛ فنهضت وقالت له من خلف الباب:

ـ أنا أشعر بتوعك لذا خلدت إلى النوم لعلي أُصبح بحال أفضل

قال بقلق:

ـ هل أستدعي لكِ الطبيب؟

ـ ليس إلى هذه الدرجة، سأنام وعندما استيقظ سأُصبح أفضل حالا

ـ كما تشاءين، هل أجعل بدرية تأتي لكِ بالطعام إلى هنا؟

ـ لا أشكرك؛ ليست لدي شهية

ـ حسنا، سأتركِ لترتاحي، وإن احتجتِ شيئا أخبريني

ـ سأفعل، أشكرك من كل قلبي.

سمعت خطواته وهو يغادر فتنفست الصعداء، شعرت بالراحة لأنه لم يذكر ذلك الشخص الذي اصطدمت به ووجودها بالحديقة، وأكثر ماجعلها سعيدة أن هناك من يهتم لأمرها ويسأل عنها إذا غابت كما حدث منذ قليل.

بعدها خلدت إلى النوم قريرة الأعين دون خوف ورأت في منامها منام رائع، شعرت وكأنه حقيقة، لم ترد أن تستيقظ منه أو تنساه عندما تستيقظ من نومها، ولكن هيهات فقد استيقظت وهي لاتذكر منه شيء يُذكر وشعرت بالضيق بسبب ذلك.

****

جلس راجي يتحدث مع بدرية التي كانت مشغولة بتحضير الفطور، كان يتناول قهوته الصباحية التي لم يشعر بمذاقها سوى من يديها هي فقط، كان قد اعتاد أن يجلس معها ويشاغبها وهي تحضر الطعام؛ لذا أعدت له ركن في المطبخ الواسع خاص به وحده، قال لها:

ـ لقد اشتقت إليكم كثيرا يا دودو

ـ حقا، ولمَ لم تسأل عننا إذن؟

ـ لقد شغلني العمل وتلك الشراكة الجديدة مع صديقي

ـ وفقك الله يا بُني لكل خير

ارتشف آخر ما تبقى من فنجانه وأعقبها بقوله:

ـ ما رأيك في الفتاة الجديدة التي عينوها هنا؟

ـ نعمة؟.. إنها فتاة غريبة حقا

سألها بفضول:

ـ وما الغريب بها؟

ـ إنها دوما صامتة لا تتحدث سوى القليل، أشعر أنها تخفي شيء، ولا أعرف لها أصل ولا فصل

ـ اعذريها من الممكن أن تكون محرجة منكم، ثم ما علمته أنها غريبة وليست من هنا

ـ محرجة؟! لا أعتقد ذلك، لقد رأيتها أكثر من مرة برفقة جلال، تتمشى وتتحدث معه، هو يعلم سرها لا محالة

ـ جلال طيب القلب والناس ترتاح له بسرعة

ـ وأنا الشريرة هنا؟!

قال بضحك:

ـ لم أقصد ذلك يا دودو، سامحيني

ـ أنا لا أغضب منك أبدا يا بُني، رحم الله والدك كان إنسان رائع وأنت لا تتخير عنه

ردد بحزن:

ـ رحمه الله، ليتني كنت مثله حقا.

دخلت عليهما نعمة وهي تقول:

ـ صباح الخير يا سيدة..

بترت كلماتها عندما لمحت ذلك الشخص الذي اصطدمت به بالأمس، وشعرت بالقلق بسبب نظراته الفضولية لها، أنقذتها بدرية عندما قالت:

ـ صباح الخير يا برنسيسة، ما كل هذا النوم، أنسيتِ ميعاد دواء الباشا؟

قالت بخفوت:

ـ بالطبع لا، لقد أتيت لتوي من عنده، وهو يبلغك أنه سيتناول الفطور اليوم في التراث برفقة..

بترت كلماتها لأنها لم تعرف اسمه فاستطردت: برفقة ضيفه

نظرت بدرية نحو راجي الذي التزم الصمت على غير عادته ثم قالت:

ـ تقصدين راجي؟ إنه ليس ضيف فهو..

قاطعها راجي بجدية وقال:

ـ استأذن أنا يا بدرية وسنكمل حديثنا لاحقا.

فور أن غادر راجي؛ تساءلت نعمة في نفسها أين قد رأته من قبل، فهي على يقين أنها رأته من قبل ولكن لا تتذكر متى أو أين، ثم سألت بدرية:

ـ من هذا الشخص؟

ـ الآن أصبحتِ فضولية؟

ـ حسنا لا أريد أن أعرف

ثم همت أن تغادر فاستوقفتها قائلة:

ـ انتظري.. إنه ابن شقيق عبد الحميد باشا رحمه الله

سألتها بفضول:

ـ وهل يقيم هنا؟

ـ كان يقيم هنا قبيل عمله بشرم الشيخ، والآن يأتينا في زيارات خاطفة

كانت بدرية سعيدة لأنها تحدثت معها أخيرا، وقد أرادت أن تجذبها للحديث معها أكثر فاستطردت:

ـ لماذا لم تأتي بالأمس لتناول الطعام معنا؟

ـ كنت متعبة

ـ والآن هل أصبحتِ أفضل؟

اندهشت من اهتمامها المفاجئ بها وقالت بدهشة:

ـ هل أنتِ بخير يا سيدة بدرية، أراكِ تحسنين معاملتي؟

ـ نعم أنا بخير يا برنسيسة

ضحكت نعمة وقالت:

ـ الآن فقط أيقنت أنكِ بخير.

كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى بدرية نعمة وهي تضحك، شعرت بالشفقة عليها؛ فهي لم تكن تتحدث أو تضحك ابدا من قبل، وأخذت تفكر في نفسها أن من الوارد أنها تحمل هم كبير يثقل كاهلها.

جلست الاثنتان تتناولان الطعام وقد غاب عن جلستهم جلال الذي فضل أن ينضم إلى راجي وعمه، انتهت نعمة من تناول الطعام ثم قالت: الحمد لله

ابتسمت بدرية وقالت بسخرية:

ـ الأطباق كما هي

نظرت نعمة إلى الأطباق الفارغة بدهشة وقالت:

ـ لقد انتهى الطعام كله بالفعل

ـ أعرف، أنا أقصد لمَ لم تجهزين على الأطباق نفسها بالمرة؟

شعرت نعمة بالحرج وقالت:

ـ آسفة لقد كنت جائعة كثيرا

ندمت بدرية على إحراجها خاصة وأنها لم تتقبل المزحة على الإطلاق، ثم وجدتها للمرة الأولى تهم بجلي الأواني بنفسها، سألتها:

ـ ماذا تفعلين؟

ـ أساعدك

ـ لا أتركِ هذا من يدك فهذا عملي انا، واذهبي أنتِ لترين عملك

ـ ولكني أعطيت الباشا الدواء بالفعل

ـ اعتقد أنه سيحتاج منكِ أن تقيسي له الضغط

قالتها بثقة ثم دخل عليهما راجي الذي قال:

ـ سلمت يداكِ يا دودو على الفطور

ثم وجه حديثه إلى نعمة:

ـ أنتِ.. عمي يريد منكِ قياس ضغطه في الحال، هو ينتظرك بالتراث.

تبادلت النظر بينه ثم بدرية بدهشة فقال:

ـ هل سمعتني جيدا أم أنكِ..

ـ بلى سمعت، سأذهب إليه في الحال.

غادرت بالفعل ووقفت بدرية تضحك بخبث فقال لها:

ـ ماذا فعلتِ لها؟

ـ أنا لم أفعل شيئا، ولكن أنت من تعاملها معاملة جافة

ـ أنا!

ـ نعم، أنت لم تكن تعامل الممرضة التي قبلها بهذه المعاملة، كنت تعاملها باحترام أكثر

ـ أنا...

التزم الصمت فسألته:

ـ أنت ماذا؟

ـ سأخبرك فيما بعد.

قالها ثم غادر من فوره ووقفت هي مندهشة من تصرفاته فتلك لم تكن طبيعته قط.

****

الفصل الخامس

وقفت نعمة تقيس الضغط لعبد الحميد ولمحت كوب كبير من القهوة الفارغ أمامه، انضم إليه راجي الذي ما إن جلس شعرت بالتوتر بسبب وجوده، انتهت مما تفعله ثم قالت بجدية:

ـ الضغط مرتفع بصورة ملحوظة يا باشا، لماذا تناولت القهوة؟

نظر لها عبد الحميد شذرا وقال بخشونة:

ـ وما شأنكِ أنتِ؟

ـ أنا آسفة لم أكن أقصد التدخل، كان يهمني..

ـ لا تتدخلي فيما لا يعنيكِ مرة أخرى، مفهوم؟

ـ قالت بخفوت وقد نال منها الحرج مبلغه:

ـ مفهوم يا باشا.

ثم جمعت حاجياتها وهمت ان تغادر فاستوقفها:

ـ انتظري هنا، أين دواء الضغط؟

ـ سآتي به على الفور

قال بعصبية هادرة:

ـ ولمَ لم تأتي به معكِ من البداية، ما هذا التسيب!

ـ آسفة، سآتي به على الفور.

غادرت وهي حزينة فقال راجي:

ـ لمَ أحرجتها أمامي هكذا؟ الموضوع لا يستحق

ـ هذه النوعية يجب أن تعامل بحزم وجدية

ـ عمي.. الفتاة لم تخطىء، هي فقط..

قاطعه: لا تعدل على تصرفاتي يا راجي، واتركني أفعل ما أراه صائبا

عندما شعر بعصبيته قال:

ـ حسنا كما تشاء

زفر عبد الحميد بقوة وقال:

ـ كل هذا بسببك أنت، لولاك ما كنت سأتناول القهوة

ضحك راجي وقال:

ـ وما شأني أنا، أنت تحبها ولا تقوى على الابتعاد عنها

ـ عندما كنت غائب لم أكن أتناولها، أنت من تفسدني

ـ أنا!، للعلم يا باشا أنت..

بتر راجي حديثه عندما دخلت نعمة عليهما وعلى وجهها آثار بكاء واضحة، أعطت الباشا الدواء دون أن تنبس بكلمة، ثم سألته قبل أن تغادر:

ـ هل تأمر بشيء آخر؟

أشار لها أن تغادر بطريقة مهينة، مما جعلها تغادر بسرعة فانكفأت على وجهها، أسرع راجي نحوها ومد يده لمساعدتها وهو يقول:

ـ هل أنتِ بخير يا آنسة؟

نظرت له والدموع تملأ عينيها واكتفت بأن أومأت برأسها، ثم نهضت وغادرت في لمح البصر، تابعها هو بعينيه ثم سمع عمه يقول:

ـ لا تخال عليك أفعالها، إنها مثل أمها تستحق لقب ممثلة وعن جدارة.

كان يتمنى أن يُكذب ما قاله ولكنه شاهدها بنفسه في مواقف لا تبشر بخير أثناء زيارته بكفر الشيخ، وقد كان يريد وقتها أن يراقبها من بعيد ربما يتعرف عليها ويعلم عنها أية معلومات؛ وقتها أراد بشدة أن يخيب ظن عمه بها، وأنها تختلف عن والدتها كل الاختلاف؛ عدا لون عينيها وسحرهما التي كانت تتميز به والدتها.

****

دلفت نعمة إلى غرفتها، ارتمت على فراشها وأخذت في البكاء، تساءلت في نفسها ما الذي فعلته لتعامل تلك المعاملة، وللمرة الأولى تمنت لو تعود إلى جحيم زوجة أبيها بدلا عن المذلة التي تراها هنا.

بعد قليل سمعت طرقات على الباب، أيقنت أنه جلال لأنه الوحيد الذي يسأل عنها ويهتم بها، كم تمنت لو كان والدها مثله أو حتى يعاملها بنصف طيبة قلبه، اعتدلت وقالت:

ـ انا بخير يا أستاذ جلال لا تقلق عليّ، سأرتاح قليلا و..

قاطعها صوت غريب على أذنها قائلا:

ـ أنا راجي.

اندهشت وتساءلت ما الذي أتى به الى غرفتها، سألته من خلف الباب:

ـ أفندم يا أستاذ راجي، هل تريد شيئا؟

تردد قليلا ثم قال:

ـ كنت أود أن اجلس معكِ ونتحدث عن الحالة الصحية للباشا

فتحت الباب ببطء فوجدته يقف بعيدا عن الباب، نظر لها نظرة خاطفة ولاحظ آثار البكاء على وجهها فقال:

ـ هل يسمح وقتك بذلك الآن؟

ـ نعم بالطبع، أمهلني بضعة دقائق وسآتي على الفور

ـ سأنتظركِ في الحديقة.

قالها ثم غادر وشعرت هي بسعادة لم تعرف مصدرها، أسرعت لتغير ملابسها، فتحت دولابها وشعرت بالخزي لأنه لم يكن هناك شيء يلائمها ويظهر جمالها، اختارت ثوب على مضض ثم ارتدته ووقفت أمام المرآة تشاهد نفسها، لم ترضى عن وجهها بسبب الشحوب الذي يعتريه وجفاف بشرتها الواضح، ثم ذهبت مع ذلك حتى لا تتأخر عنه أكثر من ذلك.

جلست نعمة قبالته ولاحظ تهربها من النظر في عينيه، شعر بخجلها منه، أراد أن يمحو آثار ما فعله عمه معها فقال:

ـ لا تؤاخذي عمي فهو شديد العصبية، والمرض يجعله سريع الغضب

قالت بخفوت:

ـ أعرف.. أعانه الله وشفاه، ولكن هو لا يترك لي الفرصة لأثبت له جدارتي

ـ استعيني بذكائك لتصلي إليه

ـ سأحاول

ساد الصمت بينهما قليلا فقطعه قائلا:

ـ ما هو مؤهلك؟

ـ دبلوم تمريض، ولم أكمل مع الأسف بسبب ضيق الحال

ـ ماذا يعمل والدك؟

شعرت بالحرج ثم قالت:

ـ يعمل في مدرسة صباحا ومساءا لديه مشروع صغير خاص به وأنا كنت أساعده

ـ جيد، أنتِ فتاة مكافحة إذن، كم عمرك بالمناسبة؟

ـ عشرون عاما

ـ هل أنت مرتاحة هنا معنا؟

ندم على سؤاله عندما رأى نظرة الحزن في عينها، ثم وجدها تقول:

ـ ليس هناك فرق بين معيشتي هنا أو معيشتي ببلدتي وسط أهلي

قالت في نفسها أقصد من كنت أظنهم أهلي

سألها بفضول:

ـ ألم تكوني مرتاحة هناك في كفر الشيخ؟

ـ في الحقيقة لا، لقد كنت أشعر أنني لا أنتمي إلى هناك، وخاصة بالفترة الأخيرة

التزمت الصمت عندنا تذكرت الأحداث الأخيرة؛ عندما فكرت في التخلص من حياتها في لحظة ضعف، انتبهت من شرودها على قوله:

ـ لا تحملي هم ستجدين الراحة هنا بيننا بمشيئة الله

أرادت أن تسأله وما أدراك بذلك ولكنها اكتفت بتحريك رأسها، ثم انتبهت لنقطة ما، أن منذ أن جلسا معا لم يتحدثا عن الباشا قط؛ بل تحدثا عنها فقط في جلسة تشبه التحقيق، شعرت بالسعادة عندما أحست أنه مهتم بها مما جرأها تسئله:

ـ كنت أود أن أسئلك، هل تقابلنا من قبل، أشعر أنني رأيتك من قبل؟

قال على الفور:

ـ لا لم نتقابل من قبل.

ثم أخذ يتذكر عندما ذهب إلى كفر الشيخ وكان يراقبها من بعيد دون أن تراه ولكن بعد حديثها الآن؛ يبدو أنها قد لمحته.

بعد هذه الجلسة شعرت نعمة بالراحة قليلا؛ فقد تحدث راجي معها برقة ولم يهينها كما كان يهينها عمه، كل ما كانت تخشاه في راجي هو عينيه؛ التي كانت تشع بريق لم ترى مثله من قبل، تذكرت حسن وكيف تخلى عنها بسهولة؛ مما جعلها تفقد الثقة فيمن حولها وخاصة عنصر الرجال، تساءلت في نفسها، هل من الممكن أن تثق في رجل من جديد، هل من الممكن أن تثق في راجي نفسه وتفتح قلبها له ذات يوم؟، ومن حسن حظها الإجابة لم تتأخر عنها كثيرا؛ فقد كانت تنتظرها مفاجأة كبيرة.. كبيرة ومذهلة بكل تأكيد.

****

انتهى عبد الحميد من صلاته ثم جلس يختلي بنفسه، نظر نحو السماء من خلال نافذته، كان يشعر براحة كبيرة كلما تأمل السماء، أخذ يناجي ربه ويدعوه أن يهديه إلى الخير فيما يشغله، ثم سمع طرقات على الباب فأذن لمن بالخارج بالدخول، دلف جلال في لهفة وقال:

ـ لقد ظهرت النتيجة

نظر له بتساؤل فاستطرد:

ـ إنها متطابقة

فور سماعه لذلك سجد عبد الحميد شكرا لله وقال بحماسة:

ـ حمدا لله.. حمدا لله

ثم نهض بصعوبة واستطرد:

ـ كيف لم يشعر بها قلبي يا جلال، كيف لم أتعرف على حفيدتي؟

ـ ربما لأنك لم تترك لنفسك الفرصة لتتعرف عليها، لقد كنت تخشى النظر إليها

ـ نعم.. فقد كنت أخشى النظر إلى عينيها الخضراوين التي تذكرني بعيني داليدا، لقد ورثت عينيها ولكني كذبت عيني، ربما لأنني كرهت داليدا ومافعلته معنا أنا وأمها

ـ يا باشا نعمة ليس لها ذنب فيما فعلته أمها

ـ أخشى يا جلال أن تكون ورثت طباعها، حدتها وأنانيتها، ثم ما قالته زوجة والدها لا ينبىء بخير

ـ لا أعتقد يا باشا، نعمة فتاة رقيقة وطيبة القلب، هذا ما شعرت به من خلال محادثتي معها

ـ ليتها تكون كذلك

ثم فجأة طالته حماسة عجيبة وقال:

ـ هل أخبرت راجي؟

ـ ليس بعد، إنه بالخارج

ـ يجب أن اتحدث معه فور أن يصل، سأوكله بالحديث معها، أنا لن أستطيع مصارحتها بالأمر، أنت تعرف كم هذا الموضوع حساس بالنسبة لي

ـ نعم.. أعلم، لا تحمل هم، راجي شخص متعقل ويزن الكلام جيدا

ـ حسنا.. اتركني الآن فأنا أريد أن أنفرد بحالي قليلا.

غادر جلال وجلس عبد الحميد يتابع السماء من جديد ثم قال:

ـ حمدا لله.

****

فور أن علم راجي بالأمر شعر بمزيج من السعادة والقلق، لم يكن يعرف سر قلقه؛ ربما لأن عمه أوكله بمهمة مصارحة نعمة، لم يعلم ما وجه الصعوبة في الأمر وهو يتجه نحوها في ذلك اليوم، كانتا عينيه تائهة، أقبلت هي نحوه بسعادة وقالت:

ـ شكرا جزيلا على الملابس الذي اشتريتها من أجلي، لقد أخبرني أستاذ جلال أنك من أتيت بها

ـ لا شكر على واجب

ـ إنها نفس الألوان التي أفضلها، لا أعلم كيف علمت أنني أفضل هذه الألوان

ـ أنا..

ـ أنت ماذا؟

ـ أريد أن نجلس معا لأحدثك في أمرٍ هام

قالت متوجسة:

ـ حسنا.

جلست أمامه لدقائق دون أن ينبس بكلمة فسألته:

ـ ألهذه الدرجة الموضوع شائك؟

قال بتردد:

ـ نعمة.. أنا.. أقصد أنتِ..

ـ ماذا؟

ـ نعمة أنتِ حفيدة عبد الحميد باشا

قالت بضيق واضح:

ـ هل طلبت أن تتحدث معي لتسخر مني؟

ـ لا.. هذه هي الحقيقة، أنتِ بالنسبة لي ابنة ابنة عمي

اكتست نبرتها بالحزن وهي تقول:

ـ هل ابنة عمك كانت راقصة؟

اندهش من قولها فسألها:

ـ كيف علمتِ بالأمر؟!

ـ من أمي.. أقصد زوجة أبي التي كنت أظنها أمي، كانت تتحدث مع أبي عنها وسمعت حوارهما بمحض الصدفة، وقتها مادت بي الأرض من هول الصدمة

نهضت وأعطته ظهرها ثم استطردت بحزن:

ـ كانت صدمة كبيرة عليّ عندما علمت بالأمر، لكني لم اندهش كثيرا فمعاملة زوجة أبي لي كانت عدائية، لم تكن تظهر لي الحب، لم تخصني بحنانها مثل باقي اخواتي

ـ واضح أنكِ عانيتِ كثيرا

ـ أكثر مما تتخيل، وعندما حاولت أن أتمرد على هذا الوضع تعرضت للضرب والتعذيب؛ إلى أن وجدتهم يسلمونني لأستاذ جلال، وقتها ظننت أنهما باعاني له، وعندما أتيت إلى هنا لعبت الظنون برأسي و..

التزمت الصمت فقال:

ـ أقدر حجم معاناتك وما شعرتِ به

قالت بعصبية:

ـ ولكن الغريب في الأمر هو معاملة الباشا لي، أقصد جدي على حد قولك

ـ هو معذور يا نعمة، لم يكن متأكد من حقيقة نسبك، كان يشك في حديث والدك منذ أن عثر عليه وأخبره أنكِ على قيد الحياة

حازت جملته الأخيرة على اهتمامها فسألته:

ـ ماذا، أنا لا افهم؟!

ـ القصة معقدة؛ عمي لم يكن يعلم بوجودك، هو كان يعلم أن والدتك أنجبت فتاة ولكن عندما انفصلت عن والدك جاءه خبر أنكِ متِ، لقد حاول التواصل مع والدتك لكنها كانت عنيدة، ابتعدت عنه وسافرت لتحقق حلمها، أرادت أن تصبح ممثلة وجدك كان يقف في طريق حلمها؛ لذا تخطته وسافرت

ـ بكل تلك البساطة!

ـ نعم، هذا ما حدث

همت أن تغادر فاستوقفها قائلا:

ـ نعمة.. هل أنتِ بخير؟

ـ لا.

قالتها ثم غادرت.

عندما دخلت إلى غرفتها؛ ارتمت على فراشها وأخذت في البكاء، لم تكن تعرف من السبب الرئيسي في معاناتها بهذا الشكل، هل هي أمها أم أبيها، ثم تذكرت جدها وتساءلت هل سيغير من معاملته لها الآن بعد أن تأكد من الحقيقة، أم أن هذا الحاجز سيظل بينهما؟ ثم استسلمت لغفوة طويلة ولم تشعر بأي شيء حولها.

استيقظت بعد فترة على صوت أنثوي ينادي باسمها فنظرت وجدتها بدرية التي قالت:

ـ حمد لله أنكِ أفقتِ أخيرا

اعتدلت ببطء ونظرت حولها بدهشة وقالت:

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد طرقنا باب غرفتك كثيرا ولكنك لم تستجيبي فاضطررنا أن ندخل لنطمئن عليكِ، وقد ذهب راجي ليأتي بالطبيب

ـ وما الداعي للطبيب؟

ـ لأنكِ كنتِ غائبة عن الوعي

ـ أنا؟!

ـ نعم، ماذا بكِ؟

ـ أنا بخير

ـ هل أنتِ متأكدة؟

نظرت لها بدهشة وقالت:

ـ هل أنتِ قلقة عليّ بعد أن عرفتِ الحقيقة؟

ـ أية حقيقة؟

ـ ألم تعرفي بعد أم أنكِ تلعبين بي؟

قالت بدرية بدهشة:

ـ ألعب بكِ، ومن أنتِ حتى أفعل معكِ كذلك، هل نسيتِ ما أخبرتك به أول مرة رأيتك بها، أنا هنا السيدة بدرية والمسؤولة عن كل صغيرة وكبيرة هنا، فلا تنس هذه الحقيقة أبداً

فوجئت بدرية بنعمة وهي ترتمي في حضنها وتبكي فشعرت بالذنب وقالت:

ـ أنا آسفة، لم أكن أقصد أن أضايقك

قالت نعمة من بين دموعها:

ـ بل أنا الآسفة، لقد ظننت بكِ السوء

ـ أنا لا أفهم شيئا مما تقولين

ـ سأخبرك بكل شيء.

واستمعت بدرية لنعمة بتركيز شديد وصُدمت مما سمعته منها.

****

الفصل السادس

عندما عاد جلال إلى منزله، دلف غرفته ثم اتجه إلى دولابه واستخرج منه عُلبة أنيقة، جلس ثم فتحها والتقط منها صورة وخطاب قديم، نظر نحو الصورة وأخذ يحدثها:

ـ لقد اشتقت لكِ يا داليدا، اشتقت إليكِ كثيرا، لقد مرت سنوات طويلة ومع ذلك لم أستطع انتزاع حبكِ من قلبي، هذا بالرغم من أنكِ لم تبادليننني الحب، أخذ يتذكر وقتما كان والده يعمل بفيلا عبد الحميد باشا، كان عندها ابن الثمانية أعوام، كان يلعب مع داليدا التي تصغره بعامين، لقد حذره والده مرارا ألا يلعب معها حتى لا تحدث مشكلة بينهما فتطول عمله عند الباشا، لكن جلال لم يسمع لتحذيره، ظل قريبا منها ويترصد حركتها، وكلما رآها كان ينتهز الفرصة ليتحدث معها.

كبر الاثنان وأصبحا بمرحلة المراهقة، دب حبها في قلبه فلم يستطع الابتعاد عنها، ولقد لاحظ الباشا علاقتهما ولم يرتاح للأمر، ثم أمرها بالابتعاد عنه وأن لا تعطي له فرصة بالاقتراب منها، كانت عنيدة فرفضت تعليماته؛ حتى بعد أن هددها أن يطرد والده لم تسمع له، أخذت تشجعه على الالتحاق بكلية الشرطة، ولقد تشبث بهذا الحلم في سبيل الاقتراب منها ونيل رضاها عنه، لكنه مع الأسف لم يوفق في هذا الحلم بسبب طبيعة ظروفه، فالتحق بكلية الحقوق لعله يصبح وكيل نيابة، ولكن مع الأسف حتى هذا الحلم لم يناله، ثم في إحدى الأيام تحلى بالشجاعة وذهب إليها يعترف لها بحبه، صدمته بأنها لا تشعر نحوه بشيء، وصارحته أنها كانت تعامله بلطف عطفا منها عليه، ولقد انقلبت حياته إلى جحيم وقتها، لم يستطع نزع حبها من قلبه، وظل يراقبها من بعيد، تسائل كيف لم تشعر نحوه بأية مشاعر في مقابل مشاعره التي تأجج بها قلبه، وظل على هذا الحال إلى أن حدث خلاف بينها وبين والدها؛ على أثره تركت المنزل، أو بمعنى أدق هربت منه ومن تحكماته، بعدها علم سبب الخلاف ألا وهو أنها أرادت أن تمتهن التمثيل، لم يكن يعلم كيف وصل لتفكيرها هذه الأشياء، داليدا الرقيقة النقية كيف تسعى إلى أن تكون ممثلة؟!

ثم قرر بعدها أن يحاول نسيانها وفي محاولة بائسة قبل أن يتزوج راضخا لأمر والده، وبعد زواجه لم يتغير حاله، ولاحظت زوجته أنه غير ملتفت لها على الإطلاق، ولم يكن مع العسير عليها علمها بحبه القديم، ونشبت بينهما المشاحنات دون توقف، وعلى أثرها طلبت منه الطلاق، ثم انفصلا بالفعل وقد قرر بعدها أن لا يتزوج مرة أخرى، وعندما تتبع أخبار داليدا في محاولة يائسة منه للوصول إليها؛ علم أنها تزوجت من شخص يعمل بملهى ليلي وكأنها تنتقم من والدها وتلقي بتحكماته وأبوته لها بعرض الحائط، لقد صُدم مما عرف وحاول تكذيبه، لكن عبد الحميد باشا أكد له الأمر عندما أعلن أمام الجميع أنه تبرأ منها ولم تعد ابنته، بعدها اقترب من الباشا واصبح يعمل لديه، كان بمثابة ساعده الأيمن، لقد قرر أن لا يتركه ويظل بالقرب منه؛ حتى يكون على صلة بداليدا حتى وإن كانت هي قطعت أية صلة تربطها بالجميع.

****

جلست نعمة مع عبد الحميد بالحديقة، لم تستطع النظر في عينيه، كانت تود أن تنتهز الفرصة وتعاتبه على معاملته الخشنة لها من قبل، ولكنها آثرت الصمت، لقد قررت أن تسمعه أولا، بعد قليل قال لها:

ـ أظن أن جلال شرح لكِ كل شيء؛ لذا سأدخل في صُلب الموضوع على الفور

سكت قليلا ثم استطرد:

ـ أنتِ حفيدتي الوحيدة من ابنتي داليدا

شعر بغصة في حلقة ومع ذلك أكمل وقال:

ـ كم تمنت جدتك أن تراكِ ولكن لم يمهلها المرض ذلك، وأيضا والدتك منعتك عننا وأخبرتنا أنكِ متِ، لقد أخفتك عننا حتى بعد أن انفصلت عن والدك، لا أعلم لمَ تركتك معه، وهو وقتها كانت ظروفه صعبة، ما علمته أنه بعد أن تم الطلاق أخذكِ على بلدته ومنشأ رأسه ولم أكن أعلم أية بلدة تحديدا؛ حتى وقت قريب عندما تواصل هو معنا، لقد كان يبحث عني، ولكن بعد سنين طويلة كانت كفيلة بتغيير أشياء كثيرة، وقد كان أكثر ما

يحزنني أنكِ نشأتِ في وسط غير ملائم ولا يناسبكِ ولكن كل شيء له أوان وسنصلح كل ما فات قدر الاستطاعة.

وجدها صامتة كما هي فسألها:

ـ هل أنتِ بخير؟

ـ كنت أود أن أعلم منك، هل أمي كانت راقصة؟

شعر بغصة في حلقة وقال بصعوبة:

ـ نعم

ـ وهل هذا كان السبب في ابتعادكما عن بعض؟

ـ نوعا ما، فهي كانت عنيدة وتفعل ما يحلو لها دون مشورة أو مراعاة لأحد

ترددت قليلا قبل أن تسأله:

ـ هل كانت معاملتك الجافة لي بسبب أمي؟

نهض وقال: إنني أشعر بالتعب الآن، سأصعد إلى غرفتي لأرتاح.

غادر وشعرت هي بالحزن فهو على ما يبدو من حديثه عن أمها قد أخذها بذنبها، وهي لا يد لها فيما فعلته وقد ظُلمت مرتان؛ مرة عندما تربت بين ايدي زوجة والدها التي عاملتها بقسوة لأنها ليست من دمها، والمرة الثانية ظُلمت ممن هم من دمها، وفي الحالتين ليس لها ناقة ولا جمل.

****

في صباح اليوم التالي فوجئت نعمة ببدرية ومعاملتها لها الجيدة، ثم أخذتها إلى غرفتها الجديدة التي طلب عبد الحميد باشا أن تنتقل إليها، وجدتها تبتعد قليلا عن غرفة الباشا.

قالت لها بدرية:

ـ راجي طلب مني أن أخبرك أن تجهزين لأنه سيأخذك لتشتري كل ما يلزمك

ابتسمت نعمة وقالت:

ـ حقا

ـ نعم

ـ كم أنا سعيدة، وأخيرا سأرتدي ملابس على ذوقي الخاص.

****

فوجيء راجي بشخصية أخرى تماما، لم تكن هذه نعمة التي كان يغلب عليها الحزن من قبل، كانت تتحرك هنا وهناك وكل خلية بها تتأجج بالحماسة والنشاط، كانت تريد شراء أشياء كثيرة وكأنها لم تحظى بهذه الفرصة من قبل، كان يعذرها نظرا لظروف أهلها في البلدة، انتبه من تفكيره عندما وجدها تختار أثواب قصيرة وعارية الذراعين، اقترب منها وقال بحزم:

ـ ما هذه الأثواب، إنها غير محتشمة؟

لاحظت نبرته الغير مريحة فقالت بإصرار:

ـ إنها تعجبني، سأذهب لأقيسها.

ثم ذهبت ووقف هو حائرا، ولم يجد بُد من أن يحاسب على كل ما اختارته بالرغم من عدم احتشامهم، لم يكن يريد فرض رأيه عليها ولكنه كان يتمنى لو سمعته وأخذت برأيه.

طوال طريقهما بالسيارة لم ينبث بكلمة، وشعرت هي بالذنب لأنها أغضبته فقالت:

ـ هل من الممكن أن نجلس في مكان معا؟

قال بضيق واضح:

ـ أين تريدين الذهاب؟

ـ أود أن اجلس على النيل.

انحرف بالسيارة على نحو سريع مما أثار خوفها، ثم أخذها إلى سفينة كبيرة على النيل، وهناك كان من الواضح انبهار نعمة بهذا المكان الجميل، فقد كانت عينيها تتراقص من الفرحة، ثم عندما سألها ماذا تطلب فقالت بلهفة كالأطفال: آيس كريم.

طلب راجي من النادل آيس كريم لها وطلب لنفسه قهوة، وحاول أن يتحاشى النظر إلى عينيها الخضراوين التي تسرق اللب.

بعد أن أجهزت على الآيس كريم تجرأ وسألها:

ـ هل تسمحي لي بسؤالك لمَ اخترتِ هذه الأثواب؟

ـ هل الأمر يشغلك لهذه الدرجة؟

ـ لا تجيبي على سؤالي بسؤال

ـ حسنا.. الأمر بكل بساطة هو أنني فُرض عليّ طوال حياتي أن ارتدي زي محدد؛ ألا وهو الجلباب؛ ليس احتشاما كما تظن ولكنه فُرض عليّ كما أخبرتك من قِبل زوجة أبي

ـ مؤكد كانت خائفة عليكِ

قالت له بنبرة تشوبها المرارة:

ـ ليس الأمر كذلك، لقد كانت تجعلني ارتدي أسوأ الملابس حتى تظهر اخواتي أفضل مني

نظرت نحو الأفق ثم استطردت:

ـ لقد كانت حياتي وسطهم بغيضة، لم أكن أشعر أنني أنتمي إليهم

ـ والآن؟

ـ هل تقصد هل أشعر بالانتماء إليكم؟

أومأ لها فقالت:

ـ لا.. أنا لا أشعر بالانتماء إليكم

ـ ربما لأنكِ في بداية الامر ومصدومة من جراء معرفتك للحقيقة

ـ كم أود لقاء أبي لأعرف منه لماذا أخفى الحقيقة عني، لقد غير اسمي وقام بتزوير شهادة ميلادي ليخفي حقيقة نسبي لأمي

ـ إنها قصة معقدة للغاية

ـ كم أشعر بالتخبط، وبذات الوقت بالحنين لرؤية..

التزمت الصمت فحسها على التكملة فقالت:

ـ كنت أود رؤية أمي

ـ ولكنها ماتت

ـ أعلم، ولكني أريد رؤيتها، إنه احساس مسيطر عليّ

أعرف أنها مخطأة ولم يكن ما فعلته يجانبه الصواب، ولكني ابنتها، قطعة منها وأنا انتمي إليها

ـ فهمتكِ

ـ تُرى هل عبد الحميد باشا من الممكن أن يساعدني في التعرف عليها؟

ـ لماذا ترددين اسمه رسمي، إنه جدك

ـ لم أتعود على الوضع الجديد بعد

ـ حسنا، إن أردتِ التعرف على داليدا أكثر عليكِ بسؤال جلال

ـ جلال؟!

ـ نعم.. إنه يعرف والدتك تمام المعرفة

ـ كيف ذلك؟

ـ لأنه كان يحبها، ولازال يعيش على ذكراها.

اندهشت مما قاله وقد كان جلال آخر شخص تفكر أنه سيعرفها على والدتها.

****

عاد جلال إلى عمله، وقد حاول تجنب رؤية نعمة، ولكن هيهات فهذه المرة هي من كانت تبحث عنه، ذهبت إليه في الحديقة وقالت له دون مرواغة:

ـ أريد التحدث معك بشأن أمي.

جلس قبالتها وسألها:

ـ من الذي رشحني لهذه المهمة الصعبة؟

ـ راجي

ـ كنت أشعر بذلك، ولكن حمدا لله فأنا مستعد تمام الاستعداد لهذه المهمة

ـ رائع، هيا أخبرني بكل شيء عنها، ولا تدخر أية معلومة

ـ لكِ هذا.

ثم أخبرها جلال بكل شيء؛ بداية من نشأتهما معا وهما أطفال، وأخبرها بعد ذلك بقصة حبه الحزينة التي كانت من طرفه هو فقط، ودمعت عينيها على إثر حديثه، شعرت بلوعة قلبه؛ التي لم تنطفىء نيرانها بعد.

****

جلس عبد الحميد يتحدث مع صورة زوجته، أخبرها بكل الأحداث الجديدة كعادته، ثم تخيلها تحدثه وتعاتبه وتقول له:

ـ وما ذنب الفتاة لتعاملها هذه المعاملة الجافة، كيف لم تأخذها في حضنك إلى الآن؟!

ـ عقلي لا يطاوعني فعل ذلك

ـ هكذا أنت دوما؛ ترجح كفة العقل على القلب، أما آن الأوان لتتغير يا حبيبي؟

زفر بقوة وقال:

ـ ليس الأمر بيدي، لا أستطيع النسيان أنكِ متِ كمدا من الحزن على داليدا

ـ لقد كنت مخطأة وعشت حياتي وأنا نفسي متعلقة بها، ومن تعلق قلبه بغير الله؛ فقد خاب وخسر

انتبه لكلامها وقال:

ـ ولكني متعلق بكِ أنا الآخر، لا أستعب فقدانك بعد

ثم استطرد بمرارة:

ـ إنني حتى أتحدث مع صورتك كالمجانين، أنا لم أعد عبد الحميد باشا الذي يهابه الجميع، أنا أصبحت إنسان هش يحيا على الذكريات القديمة، أنا..

قاطعه طرقات على الباب فقال بحدة:

ـ لا أريد رؤية أحد الآن.

قالها دون أن يعلم من بالخارج ولقد كانت نعمة، كانت تريد الحديث معه، ولكنه خذلها فذهبت وهي تشعر بالخزي وقد قررت في قرارة نفسها أنها لن تطرق بابه مرة أخرى.

****

الفصل السابع

اندفع الناس إلى مضيفة عبد الكريم ليفضون المشاجرة العنيفة بينه وبين أحد الزبائن الذي غشه ولا يريد دفع المال له لقاء لعبه، كان عبد الكريم صوته عال وهو يقول:

ـ لقد كانت فكرة سيئة من الأساس

فتدخل أحدهم وقال:

ـ والله ما كانت سيئة، ولكن على ما يبدو أن نجاحها كان مقترن بوجود نعمة ابنتك، لقد كانت تميمة حظك

هدأ عبد الكريم قليلا ثم قال:

ـ لقد مرضت وذهبت لتلقي العلاج عند أهلنا بمصر، ماذا كنت سأفعل؟

قال أحدهم:

ـ شفاها الله وعافاها

وقال آخر:

ـ لقد كانت تميمة حظك بالفعل يا عبد الكريم؛ منذ أن سافرت وأنت في حال من سيء إلى أسوأ.

أخذ عبد الكريم يفكر في أن كلامه صحيح، وأنها منذ أن ذهبت؛ ذهب معها الخير كله، حتى النقود التي قبضها من عبد الحميد أوشكت على الانتهاء؛ بسبب لهفة زوجته على تزويج فتياتها؛ فصرفت على جهازهم معظم النقود؛ فلجأ إلى مشروعه الصغير مرة أخرى، ولكن على ما يبدو أن نعمة كانت أساس نجاحه، فمنذ أن وقف مكانها وهو لا يكسب منه إلا القليل حتى بعد أن طور منه.

عندما جلس مع زوجته وأخبرها بما حدث في المضيفة، قالت له:

ـ أنت المُلام على كل ما يحدث

ـ أنا، أبعد كل ما فعلته، لقد بعت ابنتي!!

ـ لقد بعتها لقاء الفتات، أين الملايين التي كنت تحدثني عنها؟

ـ لقد دفع جدها مبلغ معقول بالفعل، وأنتِ أنفقتيه بسرعة البرق

ـ بسيطة.. أطلب منه مبلغ غيره

ـ لقد حذرني جلال أن اتواصل معهم، وأن أنسى نعمة تماما

ـ كيف تنساها وهي بيضتنا الذهبية؛ التي ستدر علينا بالمال الوفير كلما احتجنا

ـ ولكن...

ـ ولكن ماذا، إنها ابنتك يارجل، لا يكفي مال الدنيا لقاؤها

ابتسم بخبث وقال:

ـ معكِ حق هذه المرة

ـ أنا في كل مرة معي حق.

وقد قرر عبد الكريم أن يتحدث مع جلال في اليوم التالي ليطلب منه الدفعة الجديدة؛ فقد قرر أنه لن يكف عن الأمر.

****

ذات يوم مشرق جميل جلست نعمة بالحديقة وحدها، شغلها حديث جلال عن والدتها، كم كانت تريد بعدها التحدث مع جدها ولكنه خذلها. لمحت راجي وهو يغادر فنادت عليه، توقف فنهضت واتجهت إليه، نظرت نحوه وقالت:

ـ ما كل هذه الشياكة؟!

ـ إنني ذاهب إلى مناسبة خاصة

ـ أية مناسبة؟

ـ إنه عيد ميلاد ابنة خالتي

ـ عيد ميلاد!، أنا لم أحضر عيد ميلاد من قبل، هل من الممكن أن تأخذني معك؟

تردد قليلا ثم قال:

ـ حسنا لا بأس

قفزت فرحة كالأطفال وقالت:

ـ سأجهز في الحال.

ذهبت من فورها ووقف هو وقد كان يبدو عليه الندم أنه وافق أن يصطحبها معه وزاد من ندمه عندما ارتدت ملابس غير راض عنها، وعندما هم بالاعتراض أبدلتها بأخرى لا تختلف عنها كثيرا.

عندما وصلا إلى هناك، لاحظت نعمة المبنى الفاخر الذي تقطن خالته به، وعندما دخلا إلى منزلها؛ كان كل شيء يشي بالرقي.

لمحته بسمة فأقبلت عليه بحب وقالت:

ـ راجي حبيبي، لقد اشتقت إليك كثيرا

ـ وأنا أيضا يا خالتي

ـ لماذا لم تسأل عليّ إذا؟

ـ أنا آسف، لقد كنت مشغول بعملي الجديد

ـ بالتوفيق يا بُني

ثم نظرت نحو نعمة وسألته بفضول:

ـ من هذه الجميلة؟

ـ إنها ابنة ابنة عمي

قالت بدهشة:

ـ داليدا!!

شعرت نعمة بحرج فقال ليزيح عنها الحرج:

ـ إنها حفيدة عبد الحميد باشا

قالت بسمة:

ـ وهل يخفى القمر، مرحبا بكِ يا عزيزتي، لقد أنرتِ منزلنا المتواضع

قالت بخفوت:

ـ أشكركِ

ـ هيا يا راجي اذهب إلى باكينام لتتلقى وعدك فقد اطفأنا الشمع من دونك عندما تأخرت علينا

ابتسم وقال مداعبا:

ـ بل أنا الذي سألقنها درس لأنها لم تنتظرني.

وعندما غادرا بالفعل أخذت بسمة تنظر نحو نعمة؛ تراقبها وهي تشعر بالقلق خوفا أن يكون هناك أي شيء بينهما.

اقترب راجي من فتاة في أوائل العشرينات وقال:

ـ خائنة، كيف تطفئين الشمع من دوني؟

التفتت باكيام إليه وقالت بسعادة:

ـ لم يكن للعيد ميلاد معنى من دونك، لماذا تأخرت؟

ثم نظرت نحو نعمة بفضول فقال هو:

ـ تأخرت بسبب ظروف

ثم أشار نحو نعمة وقال:

ـ نعمة.. ابنة ابنة عمي

ـ هل تمازحني؟

ـ لا إنها ابنة ابنة عمي بالفعل

أخذته باكينام جانبا لتتحدث معه، فشعرت نعمة بالحرج، فالجميع على ما يبدو لا يصدق حقيقة انتسابها إليهم بالفعل، ثم وقفت جانبا وأخذت تراقب باكينام، لقد كانت تظنها طفلة، لم تكن تتوقع أنها شابة و.. وجميلة، هكذا فكرت وشعرت بعدها بالضيق بسبب طول حديثهما معا وقد تطور الحديث إلى ضحكات ولم تخفى نظراتها النارية على بسمة التي كانت تراقبها هي الأخرى.

لم تكن نعمة على طبيعتها طيلة الحفل؛ فقد شعرت بالغيرة بسبب اهتمام راجي بابنة خالته، لم ينقذها من حالتها سوى أحمد ابن خالة راجي؛ الذي انتهز وجودها وحدها فأخذ يتحدث معها بعد أن عرف نفسه عليها، أخذا يضحكا معا وعندما لاحظهما راجي اقترب منهما وقال موجها حديثه إلى نعمة:

ـ هل تعرفتِ على أحمد بهذه السرعة؟

قال أحمد:

ـ لماذا كنت تخفي علينا كل هذا الجمال؟

ابتسمت نعمة وشعرت أن هناك من نصرها أخيرا ثم شعرت بالضيق عندما قال راجي:

ـ لم أكن اخفيه، فقد كانت نعمة تعيش بكفر الشيخ وقد أتت لتوها من هناك

ـ لقد أنارت القاهرة كلها، لقد كان من حظي عودتي من الجيش اليوم؛ حتى التقي بها

انتزع راجي ابتسامة من بين شفتيه وقال:

ـ إنه من حسن حظنا نحن

ثم أقبل عليهم شاب آخر في أواخر العشرينات وقال:

ـ راجي عندنا، يا مرحبا يا مرحبا

قال راجي:

ـ كيف حالك يا محمد، لقد اشتقت إليك كثيرا

ـ وأنا أيضا يا ابن خالتي

ثم نظر نحو نعمة وقال:

ـ ألن تعرفنا على هذه الجميلة؟

شعر راجي بالضيق وأنها لم تكن فكرة جيدة بالمرة عندما اصطحب نعمة معه.

أثناء طريقهما إلى العودة لم ينبس أحدهما بكلمة، هذا بالرغم من الكلام الكثير الذي كان يدور بخلدهما، فور وصولهما لاحظ ضيقها فسألها:

ـ ماذا بكِ؟

ـ أشعر بالارهاق

ـ ألم تستمتعي هناك؟

ـ لا على الإطلاق

ـ ولماذا؟

ـ ألم تلاحظ سخريتهم مني عندما عرفوا أنني ابنة ابنة عمك؟

ـ لقد لاحظت شيئا آخر

نظرت له بتساؤل فاستطرد:

ـ لقد لاحظت أنكِ تجذبين الرجال حولكِ أينما ذهبتِ

بالرغم من شعورها بالسعادة من نبرة حديثه التي تشي بالغيرة إلا أنها قالت بحزم:

ـ هذا لم يحدث

ـ وكيف تبررين ضحكِ مع أحمد تارة ومع محمد تارة أخرى؟

ـ هذا لأنك كنت مشغول عني مع ابنة خالتك

ـ إنه عيد ميلادها وانشغالي بها أمر طبيعي، ولكن لم يكن من الطبيعي أنني كلما تركتك أجدك مع رجل جديد

شعرت بالاهانة فقالت بحدة:

ـ أنت هكذا تهينني، أنا لم أفعل شيئا خطأ

ـ كل ما فعلتيه اليوم كان خطأ، بداية من ملابسك إلى حديثك مع هذا وضحكِ مع هذا، لقد جعلتينني أندم على اصطحابك معي

ـ أنا لا أفهم ما الذي يضايقك في ملابسي؟، لقد رأيت بعض من الفتيات هناك ترتدي ما هو أسوأ

ـ ولماذا تقلدينهن؟

ـ أنا لا أقلد أحد، ولا أرى ملابسي سيئة، يبدو أنك شخص معقد، أنا لا أفهم كيف تعمل وتعيش في شرم الشيخ وتفكر بهذه الرجعية؟!

ـ لأنني أعيش في شرم الشيخ أفكر هكذا، أنتِ لا تعلمين كيف هو الوضع سيء هناك، أنا لا التفت إلى المناظر السيئة بالطبع، ولكن ما أراه من تحرش ومعاكسات للسيدات بسبب ملابسهن جعلني أشعر بالضيق كلما رأيت إحداهن ترتدي ملابس غير محتشمة

ـ ولكتي لست مثلهم

ـ أنا أرى أن ملابسك غير محتشمة

ـ أنت إنسان معقد بالفعل، ليتني ما ذهبت معك

ـ أنتِ من طلبتِ أن اصطحبك معي

ـ أنا آسفة أنني فرضت نفسي عليك، هذا لن يحدث مرة أخرى.

قالتها ثم غادرت ليقف هو في صمت، ومن أعلى كان يراقبهما جلال الذي شعر بإحساسه الخاص أن هناك شيء يدور بينهما، أو احساس قريب الشبه بحبه لداليدا.

***

أخرج عبد الحميد ألبوم صور من دولابه، أمسكه بين يديه في تردد، لم يفتحه منذ مدة طويلة، كان بداخله صور لداليدا في مراحل عمرها المختلفة، لقد كان يتهرب من التطلع إليها خوفا أن يلين قلبه لها، هم أن يفتحه بشوق شديد ولكنه سمع طرقات قلقة على بابه، كان جلال الذي قال بقلق:

ـ عبد الكريم موجود بأسفل

ـ من؟

ـ عبد الكريم والد نعمة

ـ وما الذي أتى به إلى هنا، ألم تحذره من ذلك؟

ـ لقد حذرته بالفعل، ولكنه يقول أنه معذور في نقود للضرورة

ـ لقد كنت متأكد أنه لن يشبع أبدا

ـ هل أصرفه؟

ـ لا انتظر، سأتحدث معه بنفسي؛ لعلني أُشفي غليلي منه.

نظر له جلال بقلق فقد كان يخشى بعد أن يقابله يزيد مرضه.

***

فتحت نعمة دولابها وأخذت تتأمل في أثوابها، كادت أن تجن وهي تسأل نفسها: إنها محتشمة، أنا أراها لا بأس بها، إنه حقا شخص معقد!

سمعت طرقات على بابها، ثم فتحت لتجد راجي أمامها، ابتهجت وظنت أنه جاء ليعتذر فوجدته يقول:

ـ والدك بأسفل

سألته بدهشة:

ـ أبي؟!

ـ نعم

سالته بلهفة:

ـ هل جاء لرؤيتي؟

ـ لا أظن ذلك، ولكني تذكرت كلمتك من قبل عندما قلتِ أنكِ تريدين رؤيته لتسئليه بضعة أسئلة تحيركِ

قالت بثقة:

ـ نعم بالفعل.

وبالرغم أن تلك كانت رغبتها إلا أنها شعرت بالخزي لأن والدها خذلها كليا، ثم ذهبت من فورها وعينيها تطل منهما شرار متقد.

عندما رآها عبد الكريم قال:

ـ ما شاء الله، ما كل هذا الجمال، لقد ازددتِ جمالا على جمالك يا نعمة!

سألته متجاهلة مديحه بها:

ـ لماذا جئت يا عبد الكريم؟

ـ عبد الكريم، أنسيتِ أنني والدك؟!

ـ لقد كنت أظن ذلك إلى أن عرفت الحقيقة المُرة؛ لذا أخبرني ما السبب الذي جعلك تأتي إلى هنا؟

ـ لقد نفدت النقود ووالدتك واخواتك...

قاطعته قائلة:

ـ أنا ليس لدي أم أو اخوات

ـ لقد تغيرتِ يا نعمة

ـ أنت السبب، لقد كنت أظنك أب لي، تخاف عليّ وترعاني، لكني كنت مخطأة.

لمحهما عبد الحميد من أعلى وهم جلال أن يذهب إليهما فأشار له أن يتوقف وينصت مثله، وقد كان راجي هو الآخر في مكان قريب منهما يستمع ويشاهد تحسبا لحدوث أي شيء.

قالت نعمة بتأثر:

ـ لقد نشأت بينكم وأنا أشعر بالغربة، لقد تركت زوجتك تتحكم في، وقتها كنت أظنها أمي ولكني كنت متعجبة من معاملتها، لم تكن تعاملني مثل اخواتي، بل كنت أشعر بكرهها لي، لقد تحملت الكثير وانتظرت أن تمن عليّ الأيام بأحد يعوضني ما فقدته بينكم؛ حتى حسن الذي ظننت أنه شعاع الأمل الذي ظهر لي ومعه الأمل؛ لذا تشبثت به ظنا مني أنه فارس أحلامي، لكنه مع الأسف خذلني مثلكم، لم يكن حزني عليه بسبب أنني خسرت حبي الأول، ولكن بسبب أنه لم يكن يحبني وباعني عند أول فرصة، لقد عانيت كثيرا معكم ولقد قررت أنني لن أعاني مرة أخرى

ـ يا ابنتي..

ـ لا تنطقها، أنا لست ابنتك، أنا سأعتبر حالي يتيمة الأم والأب أيضا، وفضلا لا أريد رؤيتك مرة أخرى

عندما ولته ظهرها أخذ يقول بندم دون توقف:

نعمة.. أنا آسف يا نعمة، سامحيني يا ابنتي، سامحيني أرجوكِ.

قالها ثم أخذ في البكاء، ومن أعلى سأل جلال عبد الحميد:

ـ هل ستقابله يا باشا؟

ـ لا.. يكفي ما فعلته به نعمة.

***

الفصل الثامن

في اليوم التالي انزوت نعمة على نفسها في غرفتها، لم تكن تريد رؤية أحد وبالكاد فتحت لبدرية لتأخذ منها الغداء، ولم تتناوله مع الأسف، وقد حاول جلال أن يتجاذب اطراف الحديث معها دون جدوى، وعندما اقترح على الباشا أن يتحدث معها؛ طلب منه ألا يتدخل في الأمر.

في اليوم الذي يليه خرجت نعمة من غرفتها، ذهبت إلى بدرية التي كانت تعد الفطور، وكان راجي موجود معها يتجاذبا أطراف الحديث، عندما سمعت اسمها يتردد بينهما وقفت جانبا تسترق السمع، سمعت بدرية تقول:

ـ لقد بت أشك أنك شخص معقد يا راجي

ـ هل أنا معقد لأنني أحب الالتزام؟

ـ ومن أدراك أنها ليست ملتزمة؟

ـ أنا لم أراها من قبل وهي تصلي، ثم ان تصرفاتها وملابسها كل شيء ينم على عدم التزامها

ـ ربما لم تجد من يهتم بها ويعلمها، على العموم الفرصة لم تضع بعد؛ فيمكنكم تعليمها ما فاتها وتصوبوا تصرفاتها، ولكن باللين ياراجي.. أتفهمني؟

ـ لقد حاولت ولكنها لا تسمتع لي، أخشى أن تكون البيئة التي نشأت بها أثرت عليها

ـ أظنها ستستمع إليك عندما تشعر بها

قال بمكابرة:

ـ ولماذا أكلف نفسي عناء ذلك، يكفيني هم عملي وما يوكله لي عمي من مهام.

شعرت نعمة بالغيظ منه وأرادت ان تنتقم منه بسبب ما سمعته؛ فدخلت عليهما وكأنها لم تسمع شيئا وقالت:

ـ صباح الخير سيدة بدرية، أنا سأتناول الفطور اليوم في الحديقة إذا سمحتِ

ابتسمت بدرية وشعرت بالرضا من طريقة أدبها معها في الحديث ثم قالت:

ـ من عيني يا حبيبتي

ثم لمحت نعمة بطرف عينها راجي الذي كان يتابعهما بغيظ؛ فهمت أن تغادر لتغيظه أكثر فاستوقفتها بدرية قائلة بخبث:

ـ ألن تصبحي على راجي

نظرت نعمة نحوه وقالت بخبث هي الأخرى:

ـ لم ألاحظه

فنهض هو وقال بضيق:

ـ هل أبدو لكِ شفاف أم ماذا؟

ـ لا تغضب.. صباح الخير يا أستاذ راجي.

قالتها ثم غادرت على الفور وهي تشعر بالسعادة لأنها استطاعت غيظه، ولم تسمعه وهو يقول:

ـ أريتِ يا بدرية وقاحتها؟، لا تطلبي مني أن أعاملها بلين مرة أخرى.

أخذت بدرية تضحك عليه في سرها بعد أن غادر والشرر يتطاير من عينيه.

جلست نعمة في الحديقة تتطلع حولها في صمت وعندما رأت راجي وهو يتجه نحوها استعدت للمعركة التالية. جلس أمامها وأخذ ينقر على المنضدة بعصبية، لم تعره اهتمام في بادىء الأمر ولكنها بعد فترة أشفقت عليه فقالت بخفوت:

ـ ما بك؟

كانت عنيدة برغم اشفاقها عليه فلم ترد الاعتذار منه، وهو لا يقل عنها عنادا لذا لم يعتذر عن كلامه الحاد لها سابقا، قال لها في النهاية:

ـ أشعر بالحنق بسبب معاملتك معي

ـ إذا أنت تشعر بما أشعر به الآن

لان قليلا وقال:

ـ لم أكن أقصد مضايقتك، أنا أخاف عليكِ ليس أكثر

لانت ملامحها هي الأخرى وقالت:

ـ كم أشعر بالارتياح عندما أجد من يهتم بي بعد كل تلك الأعوام

ـ حاولي نسيان ما مضى، أنتِ الآن بين أسرتك الحقيقية التي تخشى عليكِ وتهتم بكِ

سألته بفضول:

ـ وأنت.. من يهتم بك؟

زفر بقوة وهو يتذكر ذكريات طفولته الحزينة، لاحظت شروده فقالت:

ـ أنا آسفة إني أثرت شجونك

ـ لا تأسفي.. أنا لم أنسى ولا للحظة أنني يتيم؛ حتى بعد أن صرت رجل

التزم الصمت برهة ثم قال:

ـ لقد ماتت أمي وأنا بعمر العاشرة، حزنت بشدة عليها ولكن ما لم أتوقعه؛ هو حزن أبي عليها؛ الذي أعماه عن واجباته نحوي وعمله، لقد أهمل عمله تماما وظل عمي إلى جانبه وحاول يساعده بشتى الطرق، وجزاها الله خيرا زوجة عمي رأفت لحالي واهتمت بي خاصة وأنها كانت متفرغة لي تماما بسبب بعد داليدا عنها، كنت أجلس معهم هنا معظم الوقت، ولكن صورة أبي وهو يشعر بالتيه حزنا على أمي لم تغب عن بالي، وبعد عامين تقريبا مات أبي الذي لم يتحمل فراق أمي، غرقت حزنا عليهما ولم يجدي معي اهتمام عمي وزوجة عمي؛ حتى بدرية التي عطفت عليّ هي الأخرى واهتمت بي كما لو أنني ابنها

دمعت عينيها وهي تقول:

ـ لقد عشت حياة حزينة حقا

ـ لستِ وحدك من عانيتِ يا نعمة صدقيني، ولكن دوما علينا أن نقاوم لننهض من جديد

ـ هذا ما أحاول فعله، كم أتمنى لو يفتح جدي قلبه لي مثلما فعلت أنت الآن

نظر لها بدهشة، ثم أخذ يسأل نفسه: هل فعلت ذلك بالفعل، ولكن لمَ معها، ولمَ الآن؟!.

شعر بالخجل من نفسه لأنه تعرى أمامها وأصبح إنسان ضعيف، كان يكره هذا الشعور الذي لطالما هرب منه، خاصة بعدما ظل يثبت لنفسه بعد وفاة أبويه أنه بخير حال، ولا يحتاج لأحد.

أفاق من شروده على سؤالها له:

ـ هل أنت بخير؟

ـ نعم

كانت سعيدة لأنه اقترب خطوة كبيرة منها بمصارحته لها قبل قليل، فأرادت أن تعبر باقي الطريق بينهما فقالت:

ـ راجي أنا أريد أن نخرج معا اليوم

قال بتحفز:

ـ وهل سترتدين ثيابك الغير محتشمة؟

تبدلت ملامحها التي كانت تنم عن السعادة منذ قليل وقالت:

ـ لماذا دوما تحبطني هكذا؟

ـ أنا لا أحبطك، أنا أحاول أن أعلمك، فأنتِ على ما يبدو لم تتلقي توجيهات أو..

قاطعته قائلة:

ـ أرجوك توقف، لقد كنت أشعر قبل قليل أننا اقتربنا من بعضنا، ولكني كنت واهمة.

ثم غادرت من فورها وتركته ما بين شعوره بالندم والضيق، ثم جاءت بدرية بالفطور ووضعته أمامه على المنضدة وقالت:

ـ لماذا غادرت؟

ـ أظنها لن تتناول الطعام، وأنا أيضا.

ثم غادر هو أيضا ووقفت هي تضرب كفا بكف وهي تقول لنفسها:

ـ مؤكد الاثنان يكنان مشاعر لبعضهما البعض.

ثم أجفلت عندما ظهر لها جلال فجأة وقال:

ـ أتحدثين نفسك، هل وصل بكِ الجنون إلى هذا الحد؟

ـ أنا أعقل شخص في هذا البيت

ـ واضح، المهم ماذا حدث لتحدثي نفسك هكذا؟

ـ من المؤكد أن العصفور يحمل مشاعر في قلبه للعصفورة

اقترب منها وقال بخفوت:

ـ هل لاحظتِ ذلك أنتِ الأخرى؟

ـ نعم بالطبع، الصبو تفضحه عيونه

ثم أخذا الاثنان في الضحك وعبد الحميد كان يشاهدهما من أعلى وهو يشعر بالغرابة منهما؛ فقد كانت تلك المرة الأولى التي يضحك فيها جلال مع بدرية.

****

استيقظت نعمة في اليوم التالي، وقفت أمام مرآتها تتأمل وجهها الجميل، ابتسمت لنفسها وقالت:

ليس هناك من هي أجمل منكِ يا نعمة، أم نقول يا إقليمياء.

ابتسمت بجزل وأسرعت على دولابها فتحته وبحثت بعينيها على ثوب لونه صارخ، ومكشوف الذراعين نكاية في راجي، ثم ارتدته وذهبت من فورها لتغيظه وتنتقم منه.

بحثت عنه بأرجاء الفيلا ولم تجده؛ فسألت عنه بدرية التي أخبرتها أنه سافر بسبب مشكلة تتعلق بعمله في شرم الشيخ، شعرت بالغضب لأنه سافر دون أن يخبرها، وعندما سألت على جدها أخبرتها بدرية أنه يشعر بالتعب ولم يخرج من غرفته اليوم، أخذت تفكر هل تذهب إليه أم لا، ثم ذهبت لأنها في المقام الأول كانت

ممرضته، عندما طرقت باب غرفته تذكرت ردة فعلته الأولى عندما زارته، شعرت بغصة في حلقها، ثم نفضت عنها هذه الذكريات الأليمة، تناهى إلى مسامعها صوته المرهق يسمح لها بالدخول، فدلفلت إلى الغرفة بحذر، رأته يرقد على فراشه، اعتدل بصعوبة فاقتربت منه وقالت:

ـ سلامتك ياباشا، مما تشكو؟

ابتسم بمرارة لمناداتها له رسميا ثم قال:

ـ أنا بخير حال، شكرا على سؤالك

ـ هل أخذت دوائك؟

ـ لا

ذهبت على الفور لتأتي له بالعلاج ومعداته الطبية، ثم جلست إلى جانبه لتقيس له الضغط والسكر، وبعد أن انتهت قالت:

ـ ضغطك منخفض يا باشا، واضح أنك لا تأكل جيدا وهذا ضار على صحتك

ابتسم وقال بتهكم:

ـ وهل نصيحتك تلك نابعة من كونك ممرضتي أم لأنني جدك وتخشين عليّ؟

ـ أنت لا تعطيني فرصة مع الأسف أن اهتم أوأخشى عليك؛ دوما تصدني إما بأفعالك أو أقوالك

اندهشت منه عندما قال بكل سهولة:

ـ أنا آسف.. سامحيني

سألته بدهشة:

ـ هل تسخر مني؟

ـ أبدا

ـ أنا سأطلب الطبيب ليأتي ويفحصك، أشعر أنك لست بخير

ـ لا تفعلي؛ فأنا بخير حال اليوم

أشار لها أن تجلس إلى جانبه ثم استطرد:

ـ أخبريني الآن ماذا بكِ أنتِ، أنا أشعر أنكِ لستِ على ما يرام؟

تنهدت وقالت:

ـ هل علمت بأمر سفر راجي؟

ـ راجي لا يفعل شيئا دون أن يخبرني

ـ هذا لأنه يحترمك ويحبك، إنه سافر دون أن يكلف حاله بإخباري

ـ لقد شعرت من حديثه معي أن بينكما خطب ما ولكنه كالعادة لم يفصح عن شيء؛ فهذا هو راجي كتوم بطبعه

ـ مؤكد ما مر به في حياته قد أثر عليه

ـ هذا شيء أكيد، ولكن هل ستخبريني أنتِ ماذا حدث بينكما؟

قالت له دون تردد:

ـ سأخبرك.

ثم أخبرته نعمة بكل شيء دار بينهما وكأنها تنتقم منه، أرادت أن تسمع من جدها بشدة أنه هو المخطىء، وارتاحت عندما أخبرها أن تسرعه وانفعاله يفقده الصواب مما يجعله يتفوه بكلمات تؤذي من أمامه، وتحدثا كثيرا عن طباعه الحادة وأن كل ذلك ليس بيده، فقد اتخذ من طباعه تلك سلاح ليقاوم به ضعفه ووحدته ويتمه.

ارتاحت نعمة كثيرا بعد ذلك الحديث مع جدها، وشعرت أن المسافة بينهما قد اقتربت؛ لذا قررت أن تعاود تجربة الحديث معه كل يوم خاصة بعدما شعرت بالألفة نحوه.

ذات يوم ذهبت إلى جدها كما اعتادت لتناول معه الفطور؛ حيث لم يعد يتناول شيء إلا معها، دلفت إلى حجرته في هدوء ثم وجدته راقدا في فراشه في سكون، اقتربت منه فشعر بها وقال:

ـ اقتربي يا حبيبتي

ابتهجت لكلمة حبيبتي، ثم جلست إلى جانبه، اهتمامها به ذكره بوالدته وحنوها عليه، تذكر عندما كانت ترقيه فقال لها:

هل من الممكن أن ترقيني؟

ـ نعم بالطبع

وضعت يدها اليمنى على رأسه وأخذت تردد آيات القرآن الكريم وبعض الأدعية كما كانت تفعل مع شقيقتها عندما كانت تعاني من خطب ما، ثم تأثرت ودمعت عينيها وشعر عبد الحميد بضربات قلبها الملحوظة فسألها:

ـ ماذا بكِ؟

ـ أفكر في كم أن هذه الدنيا غريبة وعجيبة

ـ معكِ حق، ولكن البشر أفعالهم أعجب

ـ نعم بالفعل

زفر بعمق وقال:

ـ هل تعرفين.. منذ وفاة جدتك وأنا أبحث عن أمك، كنت أود مقابلتها بشدة، ولكني كنت أقاوم اشتياقي إليها، عجرفتي انتصرت على شعوري وقلبي، حتى بعد أن علمت بوفاتها وأنكِ على قيد الحياة؛ لم تتخلى عجرفتي البغيضة عني، أنا لا أنكر سعادتي في بادىء الأمر خاصة وأنني سأنفذ وصية زوجتي الراحلة. عندما رأيتكِ للمرة الأولى شعرت أنكِ حفيدتي، أنتِ تملكين نفس عينين داليدا، ولكني كابرت واستنكرت شعوري، عاملتك بقسوة رغم أنني كنت أعرف أنكِ جزء مني، تنتمين إليّ

لم تستطع نعمة منع نفسها من البكاء خاصة عندما قال:

ـ سامحيني يا نعمتي، من اليوم سأطلق عليكِ نعمتي.

وجدته يغيب عن الوعي فسألته بلهفة:

- جدي.. جدي.. هل أنت بخير؟

لم يرد عليها فأسرعت تستنجد بأحد، نادت على جلال بأعلى صوت ثم عادت لتجلس على الأرض بحزن، أسرع جلال إليها، شاهد عبد الحميد وهو يرقد دون حول ولا قوة ونعمة تجلس على الأرض متكورة على نفسها تبكي في صمت، قال لها:

- اهدئي سيكون بخير

ثم اتصل بطبيبه وطلب منه أن يأتي على وجه السرعة.

أتي الطبيب بالفعل وطلب منهم نقله إلى المشفى في الحال، وهناك جلست نعمة تنتظر ما سيخبرها به الأطباء، وخرج الطبيب بعد فترة فأسرعت هي وجلال نحوه، قال لهما:

- حالته حرجة للغاية فقد تمكن مرض السرطان منه

نظرت له مصدومة وقالت بدهشة:

- سرطان!!

- لقد نقلناه لغرفة الرعاية المركزة لأن حالته حرجة للغاية.

غادر الطبيب فسألت جلال:

- سرطان يا جلال، لماذا لم يخبرنا؟!

- أنا كنت أعلم، لم يكن يريد لأحد أن يعلم سواي

- لماذا يا جلال.. لماذا؟

- لقد أراد أن يستسلم للمرض، لم يكن يتلقى علاج له، لقد كان يريد لقاء زوجته وابنته

قالت من بين دموعها:

- كيف يتركني بعد أن دخل قلبي، لماذا فعل بي ذلك، ليته لم يصارحني بما في قلبه، ليته ظل على معاملته القاسية لي.

ربت جلال على كتفها ثم اتصل براجي ليقول له أن يأتي على وجه السرعة.

****

الفصل التاسع

عندما حضر راجي وعلم بحقيقة مرض عمه شعر بالصدمة، لقد ظن أنه أقرب شخص له، عاتب جلال أنه لم يخبره حتى يتدخل ويحاول اقناعه بخضوعه للعلاج، عندما وصل إلى المشفى ذهب إلى الطبيب المسؤول عن حالة عمه، سأله عنه وعلم أن الحالة ميؤوس منها، شعر بحزن شديد وطلب أن يقابله او حتى يراه ولو من بعيد.

عندما وصل إلى غرفته وجد نعمة هناك، كانت نائمة على كرسي بجانب غرفته، ثم أتى جلال ومعه كوبين من القهوة، احتضنه وقال:

ـ كيف حدث ذلك يا جلال، كيف لم تخبرني؟

ـ لقد كانت رغبته، أنت تعرف عمك جيدا

نظر راجي نحو نعمة وقال:

ـ ما الذي أتى بها إلى هنا؟

ـ لقد أصرت على مرافقته، على الرغم من تعليمات الطبيب بعدم دخول أحد عليه

ـ خذها إلى المنزل يا جلال وأنا سأمكث هنا تحسبا لحدوث جديد

ـ لن توافق، إنها عنيدة للغاية، لقد أقسمت ألا تتركه

قال بتهكم:

ـ ومنذ متى كل هذا الحب؟

ـ لقد فتحا قلبيهما لبعض وتحدثا معا كثيرا خلال فترة غيابك.

اقترب راجي منها وقال:

ـ نعمة.. نعمة

اعتدلت بصعوبة وقالت:

ـ هل استيقظ جدي، هل سمحوا بالدخول له؟

ـ لا، هيا عودي إلى المنزل الآن مع جلال

ـ هذا لن يحدث، سأظل هنا إلى جانبه

ـ لقد قلت هيا لتعودي إلى المنزل

نظرت له بتحدي وقالت:

ـ لن أذهب

ـ منذ متى كل هذا الاهتمام، هل أصبحتِ تهتمين به فجأة هكذا؟

ـ إنه كل ما تبقى لي في هذه الدنيا؛ لذا لن أتركه

تأثر لنبرة صوتها فقال بلين:

ـ وجودك هنا لن يفرق معه في شيء

بكت وقالت برجاء:

ـ وجودي هنا إلى جانبه يفرق معي أنا.

وتركها بالفعل في هذا اليوم ولكن في اليوم التالي أجبرها أن تغادر، كان يعلم أنها مسألة وقت قبل إعلان وفاة عمه، ولم يكن يريد وجودها حينها، وقد وصى بدرية عليها.

***

استبد ببدرية القلق بعد طرقت على باب غرفة نعمة دون أية استجابة منها، لم تجد بُد من محاولة فتحه، ثم فتحته بالفعل؛ فلم تجدها بالغرفة، وعندما وجدت النافذة مفتوحة ذهبت لتراها هناك، وجدتها نائمة على الكرسي فأشفقت عليها، أخذت توقظها ثم فتحت نعمة عينيها بصعوبة، قالت بدرية:

ـ صباح الخير، لقد أشفقت عليكِ من نومك في الهواء هكذا فأيقظتك

ـ أنا لم أنم منذ الأمس، ولكن عندما جلست هنا غفلت

ـ لماذا كل هذا القلق يا ابنتي؟

ـ أخشى أن يموت، لم يعد لي أحد غيره

ـ خطأ

ـ إن كنتِ تقصدين أبي فأنتِ مخطأة

ـ أنا قصدت أنكِ معكِ الله جل وعلا

ـ ونعم بالله

ـ ثم أننا حولكِ ولن نتركك

أخذتها من يدها وقالت:

ـ هيا معي

ـ إلى أين؟

ـ سنصلي وندعو له، هذا ما يحتاجه منا الآن.

وذهبت نعمة معها وكانت تلك هي المرة الأولى التي تصلي بها، فلم يكن هناك من يعلمها ويرشدها لهذا الطريق من قبل، فقد كبرت ووجدت أبيها لا يصلي فسارت على نهجه، أما الآن وهي تصلي شعرت براحة كبيرة، أخذت تدعو لجدها دون توقف فلم يكن بيديها شيء آخر لتفعله له.

ذات يوم كانت تجلس في الحديقة؛ تفكر كيف تبدل حالها من بلدتها بكفر الشيخ ثم إلى هنا، تأملت الحديقة حولها وشاهدت الفراشات وهي تطير، أخذت تسأل نفسها: تُرى كم تبقى من الوقت لأطير مثلكم بحرية وسعادة، وكم تبقى لأصل للغد الذي أتمناه؟

قاطع شرودها دخول الحارس عليها الذي قال:

ـ هناك شخص بالخارج يريد رؤيتك

ـ من يكون؟

ـ إنه يقول أنه أحد معارفك ببلدة كفر الشيخ

ـ حسنا أدخله.

انتظرت نعمة بفضول هذا الضيف، تمنت لو كان والدها وجاء ليعتذر لها على كل ما فعله معها، بعد قليل تراءى لها حسن يتقدم نحوها بخطوات متثاقلة، اندهشت من مجيئه فقد كان آخر شخص توقعت أن تراه بتلك اللحظة.

جلس حسن قبالتها وقال:

ـ أعرف أنكِ لا تريدين رؤيتي بعدما فعلته معكِ، لقد جئت إليكِ لأعتذر منكِ

قالت بثقة:

ـ لقد نسيت كل شيء منذ قدومي إلى هنا ولا يفرق معي اعتذارك

ـ صدقيني ما حدث ليس لي ذنب فيه، لقد فرضت عائلتي عليّ أن أرضخ لاتفاقهم مع والدك، لقد كانت ظروفنا صعبة كثيرا وقتها، ومكانة عائلتي ولقبها كاد أن يتزعزع من مكانه، لقد كنت مضطر أن اوافقهم

ـ أنا أعلم جيدا أنني لم أفرق معك حينها، ولكن مالا أعلمه لماذا تغير موقفك الآن وجئت لتعتذر

ـ لأنني شعرت بالذنب اتجاهك، لقد رفضت عرض والدك وأخبرته أنني لن أتزوج أحد غيرك

ضحكت وقالت بتهكم:

ـ وهل جاءك هذا الشعور بالذنب بعدما علمت أنني من عائلة غنية أم قبلها؟

ـ لقد شعرت بالندم فور اختفائك المفاجيء، وعندما أعلن والدك أنكِ مريضة وتتلقين العلاج بالقاهرة وتجلسين مع أحد من أقاربك

ـ هل تظن أنني مازلت تلك الساذجة التي أحبتك وصدقتك من قبل، لا يا حسن لقد نسيتك وتخطيتك ولم تعد تعنيني في شيء

ـ يا نعمة أنا..

ـ لقد انتهى الكلام بيننا، تفضل من هنا.

نهض ثم اقترب منها وحاول أن يمسك يدها في محاولة يائسة منه لعله يكسب رضاها، ولكنه ما إن اقترب منها؛ وجد شخص يدفعه بعيدا عنها ويصيح بحدة:

ـ من الذي سمح بدخول هذا الشخص إلى هنا؟

نظرت نعمة نحوه مصعوقة وقالت:

ـ راجي

ـ نعم راجي، لم تتوقعي حضوري بالطبع أليس كذلك

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد انتهزتِ عدم وجود أحد بالبيت لتفعلي ما يحلو لكِ

تدخل حسن وقال:

ـ يا أستاذ أنت فهمت خطأ، لقد جئت..

قاطعه بحدة:

ـ أنت غير مسموح لك بالحديث أو التواجد هنا، اخرج من هنا ولا تعود أبدا وإلا سأقطع قدميك في المرة القادمة.. مفهوم.

غادر حسن وهمت نعمة أن تغادر هي الأخرى فاستوقفها قائلا:

ـ إلى أين؟

ـ لا أريد التحدث معك الآن

ـ لماذا، ألا يعجبك كلامي، هل تريدين أن تفعلي ما يحلو لكِ دون رادع لتصرفاتك الطائشة

قالت مدافعة عن نفسها:

ـ أنا لم أفعل شيئا لكل تلك الثورة

ـ وماذا تفسرين مجيء حبيبك القديم إلى هنا؟

اندهشت من معرفته بالأمر فسألته:

ـ كيف عرفت أنه..

ـ لا تتهربي من الإجابة

قالت وهي مغلوبة على أمرها:

ـ لقد فاجئني بحضوره ولم تكن لدي نية لمقابلته

ـ لماذا إذا جلستِ معه، لماذا سمحتِ له أن يقترب منكِ كما رأيت؟

ـ لقد فاجئني بحضوره كما أخبرتك، أنا لم أعد أريد معرفته أو رؤيته وهذا ما أخبرته به بالمناسبة

ـ لقد صدق جدي عندما قال عنكِ أنكِ ورثتِ من داليدا تصرفاتها الطائشة

ـ جدي قال هذا؟!

ـ نعم، لقد كان يخشى منكِ وأنا مع الأسف طمئنته من ناحيتك، ولكني كنت مخطىء، أنتِ لا تفرقين عنها في شيء

قالت من بين دموعها:

ـ كفى أرجوك، كفى ظلم، أنا لست مثل أحد، أنا نفسي وفقط، كفى تشويه فيّ وكفى توقعات عني وعن تصرفاتي، أمي أنا لم أراها، لماذا تحملونني ذنبها، أنا لست مثلها.

قالتها ثم غادرت بسرعة لتنهار من البكاء، وجلس راجي وضرب سطح المنضدة بيديه في غضب ثم قال بعصبية:

ـ فتاة طائشة لم تجد من يحسن تربيتها.

***

عندما عاد جلال من المشفى وجد كل من راجي ونعمة يلزما غرفتهما، تحدث مع بدرية فقالت له:

ـ هناك سوء تفاهم حدث بينهما ولكني لا أعلم التفاصيل

ـ وهل هذا وقته؟

ـ أخبرني كيف حال الباشا الآن؟

ـ كما هو يابدرية، إنه لم يفق منذ وقتها

ـ لقد دعيت له انا ونعمة، إنها فتاة رقيقة وطيبة القلب، لقد دخلت قلبي

ـ هي فعلا تدخل القلب من أوسع أبوابه..

قاطعه رنين هاتفه وعندما رأى اسم الطبيب المسؤول عن حالة الباشا رد على الفور، نظرت له بدرية تتابعه بلهفة ثم سمعته يقول: هل أفاق بالفعل؟.. حسنا يادكتور سنأتي على الفور

سألته بدرية: هل أفاق الباشا بالفعل؟

ـ نعم وطلب رؤية نعمة.

ذهب ثلاثتهم من فورهم إلى المشفى، كانت نعمة تسبقهما بخطوة، أسرعت على حجرة جدها، دلفت إلى داخلها، دمعت عينيها وهي تراه وسط الأجهزة الطبية، أشار لها أن تجلس إلى جانبه، ثم دخل راجي يتبعه جلال، وقف الاثنان إلى جانبه وقال راجي:

ـ سلامتك يا عمي، لقد قلقنا عليك كثيرا

قال بوهن:

ـ أنا بخير حال الآن طالما نعمتي إلى جانبي

شعر راجي بالضيق بينما ابتسمت نعمة وقالت:

ـ وأنا لن أتركك أبدا

توجه بحديثه إلى راجي وقال:

ـ أريد أن اجلس مع نعمة وحدنا

قال راجي بحزن:

ـ كما تشاء.

انتظرا راجي وجلال بالخارج وبعد فترة خرجت نعمة وهي ساهمة ثم قالت لراجي:

ـ جدي يريد أن يتحدث معك.

الفصل الثاني عشر

دلف راجي إليه وجلست نعمة، لاحظ جلال حالتها فقال يهون عليها الأمر:

ـ لا تقلقي يا ابنتي، كل شيء سيكون على مايرام

ـ ليس تلك المرة.

ثم فوجئا الاثنان براجي وهو يخرج ويقول بجزع:

ـ استدعي الطبيب في الحال، قلب عمي توقف.

وجاء الطبيب وحاول إنعاش قلبه ولكنه لم يستجب وبعد قليل أعلن وفاته.

****

الفصل العاشر والأخير

انشغل راجي بجنازة عمه ومن ثم العزاء، ونسي في غمرة حزنه وانشغاله أن يسأل عن نعمة، لقد رآها مرة واحدة فقط قبل صلاة الجنازة، كانت برفقة بدرية والتي طلب منها ألا تتركها أبدا.

في اليوم التالي بحث جلال عن نعمة ولم يجدها، سأل عليها بدرية فأخبرته أنها كانت تظن أنها نائمة في غرفتها، فأسرع ليخبر راجي.

كان راجي جالسا بحزن في غرفته، تذكر آخر كلمات عمه له، إنها بمثابة وصية وعليه أن ينفذها، استرجع كلماته عندما قال له بوهن: نعمتي أمانة في رقبتك، حافظ عليها يا راجي، أنا أعلم أنك تكن مشاعر لها فقد رأيتها في عينيك، تزوجها يا راجي وحافظ عليها ولا تقلق فطباعها لا تشبه طباع أمها، لقد تأكدت من ذلك بنفسي.

انتشله من أفكاره طرقات جلال على الباب دون توقف ففتح له ليجده يقول له بقلق:

ـ نعمة ليس لها أثر بالفيلا

انتفض راجي وقال:

ـ أين ذهبت؟

ـ لا أعلم وهاتفها مغلق

تذكر راجي وصية عمه الأخيرة له فقال:

ـ يجب أن نجدها، لقد تركها عمي أمانة في رقبتي.

كان يعلم أنها لا تعرف الأماكن بالقاهرة مما زاد من قلقه عليها، بحث راجي في كل مكان ووصى صديق له يعمل في المباحث أن يساعده ويهتم بالأمر، ثم تذكر أنه لم يبحث عنها ببلدتها بكفر الشيخ، فقرر الذهاب إلى هناك والبحث عنه ودعا ربه أن يجدها هناك.

في البداية حاول جلال إثنائه عن الذهاب إلى هناك نظرا لأن نعمة كانت على خلاف مع والدها، ولكن راجي تشبث بهذا الأمل وسافر من فوره، وهناك قابل راجي عبد الكريم وسأله عنها فقال:

ـ أنا لم أراها منذ زيارتي الأخيرة لها بفيلا جدها

ـ أين قد تكون إذا؟

ـ لقد تركتها معكم أمانة، كيف تضيعوا الأمانة؟

ـ وهل تعرف أنت معنى الأمانة؟

ـ لم أكن أعرف، ولكني منذ زيارتي إليكم وعندما تحدثت معها شعرت بالندم الشديد، نعمة كانت فتاة ذكية وطيبة القلب، ولكني شوهتها بأنانيتي، لقد عاتبت نفسي كثيرا وتبت إلى الله ولكني لم تكن لديّ الجرأة لأذهب إليها وأستسمحها

قال راجي بقلق:

ـ أين قد تكون الآن؟

ـ أراك قلق عليها، هل يهمك أمرها إلى هذا الحد؟

ـ نعم كثيرا، لقد وصاني عمي عليها رحمه الله

ـ هل مات عبد الحميد؟

ـ نعم، ولم تتحمل الصدمة المسكينة فتركت البيت

أخذ عبد الكريم يفكر قليلا ثم قال:

ـ ربما ذهبت لأختي بالاسكندرية

ـ وهل تعرف هي عنوانها؟

ـ لقد ذهبنا لزيارتها ذات مرة منذ خمسة أعوام، ولكن نعمة تحفظ الأماكن بسهولة

ـ جيد، هذا أمل نتعلق به، سأسافر إلى هناك على الفور، اعطني العنوان

ـ سأسافر معك

ـ هيا بنا إذا

ـ سأجهز في الحال.

وذهب عبد الكريم ليجهز نفسه للسفر فرأته زوجته وسألته:

ـ من هذا الرجل الأنيق الذي جاء لزيارتك؟

ـ إنه يريدني في شيء

ـ ليته يتزوج واحدة من الفتيات، حاول أن تعرض عليه الأمر

ـ هل جننتِ، ألا يكفي ما فعلتيه مع نعمة بسبب فتياتك؟

ـ وهل هم ابنائي وحدي، هل يعجبك حالهم وهم يجلسون إلى جانبنا هكذا؟

ـ بالطبع لا ولكني أظن في الله خيرا، وسيأتي نصيبهن عما قريب.

قالها ثم غادر ووقفت هي تمصمص شفتيها وهي تقول:

ـ هل أصبح شيخا أم ماذا؟!

***

في منزل صغير متواضع بمحافظة الاسكندرية أخذت فتحية تجهز الفطور، ثم نادت على ابنتها الصغرى جنة، جاءت جنة وقالت:

ـ نعم يا أمي

ـ هيا اوقظي نعمة لتفطر معنا، إنها لم تأكل منذ الأمس

ـ إنها عنيدة للغاية، ترفض الطعام وخلدت إلى النوم بصعوبة

ـ مسكينة لقد مرت بالكثير والكثير، منذ أن أخبرتني بكل ما حدث معها وأنا قلبي حزين من أجلها

ـ ولكن كيف يفعل خالي شيئا كهذا؟

ـ لا شأن لكِ بهذا، ركزي أنتِ فقط على مذاكرتك.

ثم ذهبت جنة فقالت فتحية تحدث نفسها:

ـ يجب أن اتحدث معه وأردعه عما يفعل.

استيقظ عطية زوجها فقالت له:

ـ لقد أعددت لك الفطور

ـ أين الفتيات؟

ـ جنة ذهبت لتوقظ نعمة

ثم عادت جنة وقالت:

ـ لقد طلبت مني أن أتركها وحدها

قال عطية:

ـ لا تتركوها لمثل هذه الحالة، ستنهار هكذا

ـ لا تقلق سأهتم بنفسي بها

ـ يجب أن تفهم أنها هنا في منزلها

ـ أنت طيب القلب حقا يا عطية، بارك الله فيك

ـ إنها مثل ابنائنا.

وبعد أن ذهب عطية إلى عمله وجنة على مدرستها دخلت فتحية إليها، وجدتها مستيقظة على السرير، كانت تنظر إلى السقف وهي شاردة، جلست إلى جانبها وقالت:

ـ أما آن الأوان أن تتناولي الطعام، أخشى أن تمرضي من قلة الطعام

اعتدلت نعمة ببطء وقالت:

ـ لا تقلقي عليّ، أنا بخير

ـ لا لستِ بخير، انظري في المرآة لتعرفي، أنا أعلم أن ما مررتِ به كان صعب ولكن الحياة يجب أن تستمر، لاتقفي عند حزنك كثيرا

ـ لقد تعلقت به في اواخر أيامه، ولا أستطيع نسيان آخر كلماته لي، لقد أخبرني أن عمره الحقيقي هو عدد الأيام السعيدة التي مرت عليه في حياته، وأن أحد هذا الأيام كان عندما رآني والآخر عندما تأكد أنني حفيدته، لقد ناداني ب نعمتي، لقد أحببت اسمي وهو ينادني به، ليتني عرفته لفترة أطول، سامحها الله أمي هي من كانت السبب في ابتعادي عنه

ـ وما ذنبها، لقد كانت مريضة

انتبهت نعمة على كلماتها فسألتها:

ـ تقصدين من؟

ـ أمكِ.. لقد كانت مريضة بال الزهايمر

ـ هل كنتِ تعرفينها؟

ـ نعم تمام المعرفة

ـ كيف ذلك؟

ـ لقد تعرفت عليها قبل أن تتعرف على عبد الكريم

ثم أكملت بحزن: بل أنا مع الأسف التي عرفتها عليه

ـ أرجوكِ أكملي، أنا أريد أن أعرف عنها كل شيء

ـ سأخبركِ ولكن لا تقاطعينني حتى انتهي.

واستمعت لها نعمة بآذانٍ صاغية.

****

كانت داليدا شخصية مستقلة، ولم يفهم والدها طبيعتها تلك ولم يعرف كيف يتعامل معها يوما، لقد ظل يقهرها برفضه لكل طلباتها؛ إلى أن ذات يوم صارحته برغبتها في احتراف التمثيل وأن تلتحق بمعهد التمثيل، لكنه رفض رفضا قاطعا دون رجعة، كانت والدتها تحبها ولا تريد أن تكسر بخاطرها، ولكن في ذات الوقت لم تكن تريد عصيان زوجها الذي كانت تحبه وتقدره؛ لذا كان موقفها سلبي، ولم تجد داليدا حل آخر سوى أن تهرب من هذا السجن لتحقق حلمها.

أعدت خطة هروبها، في البداية اختارت مكانا بعيدا عن والدها لأنها كانت تعرف جيدا أنه لن يتركها وشأنها، ثم أخذت تخطط كيف ستنفق على نفسها وأين ستمكث، ثم تذكرت صديقة لها كانت من الاسكندريه فتواصلت معها وطلبت منها أن توفر لها شقة بإيجار معقول وحصلت على النقود التي تحتاجها من والدتها، ولم يكن ذلك بالصعب أبدا؛ فقد أخبرتها أنها تريد أن تتسوق كعادتها، ولم تندهش والدتها من المبلغ الكبير الذي طلبته منها، وأعدت داليدا ما تحتاجه وحزمت حقيبتها وسافرت إلى الاسكندريه، عندما علم والدها بالأمر كاد أن يجن؛ فهي كانت ابنته الوحيدة، وأيضا شعر أن زمام الأمور فلتت منه، وهذا كسر شيء في نفسه؛ ورغم حبه الشديد لها أعلن غضبه عليها وأنه سيحرمها من ميراثه إن لم تعود، ولكن هيهات فقد تهيأت داليدا لمعيشتها الجديدة، وأحبت المنطقة الشعبية التي مكثت فيها، والتحقت بالعمل كنادلة في مطعم لتنفق على نفسها ودراستها، وهناك تعرفت على فتحية التي كانت تعمل نادلة هي الأخرى، اقتربا من بعضهما وأخبرتها داليدا بقصتها وتعاطفت معها وأرادت أن تساعدها، عرفتها على شقيقها الذي كانت علاقاته وقتها بلا حدود، كان

يعمل حارس بملهى وقد نال إعجابها بسبب قوة شخصيته، وعلم هو عنها كل شيء فدخل لها من باب أنه سيساعدها على تحقيق حلمها، ولقد كان في الحقيقة يريد أن يرتبط بها عندما علم أنها ابنة رجل غني، وأعد مخططه وجاء لها بشخص يكتشف المواهب، هذا الرجل أقنعها أن أسهل طريق لدخول عالم التمثيل هو أن تحترف الرقص، ولأنها كانت في عجلة للوصول إلى حلمها؛ وافقت ولكن بشروط خاصة، وبعدها زين عبد الكريم لها أنها حتى تكمل في هذا المجال يجب أن تكون متزوجة من رجل يصونها، وأنه قادر على ذلك، وبالفعل تزوجته، كانت أيامهم الأولى جميلة وهانئة، ولكن دوام الحال من المحال، فقد ملت داليدا من عملها كراقصة؛ هذا بالرغم من الربح الوفير الذي كان عبد الكريم سعيد به كثيرا، مما جعله يصبر على التنعم بأموال والدها، ثم علمت داليدا عن طريق الصدفة أن عبد الكريم متزوج من ابنة عمه ببلدته وأنه له منها ثلاثة فتيات، ولقد ثارت عليه وقتها لأنه أخفى الأمر عليها وكادت أن تطلب منه الطلاق لولا علمها بأنها حامل، وقتها هدأت كثيرا وقررت أن تتوقف عن الرقص، واستاء عبد الكريم من الأمر بعد أن ضاقت معيشتهما، ولقد عرض عليها أكثر من مرة أن تتواصل مع والدها ليبعث لها بالنقود ولكنها كانت عنيدة ورفضت ذلك.

أثناء الحمل تعرضت داليدا لتعب غريب، نقص في الفيتامينات وآلام في العظام، أخبرها الطبيب أن هذا بسبب سوء التغذية؛ فقد كانت تأكل القليل وما لا يفيد، وقد أثر هذا بعد ذلك على ذاكرتها، وكانت معها فتحية لحظة بلحظة تحاول مساعدتها.

لم يعد عبد الكريم يستطيع الانفاق عليها؛ وعندها انتهز الفرصة وطلب من والدتها نقود دون علمها، وعندما علمت بذلك الأمر ثارت عليه وطلبت من الطلاق، لكنه رفض فقد قرر ألا يتخلى عنها، ثم أنجبت داليدا فتاة جميلة أطلقت عليها إقليمياء، وقد أحبتها وتعلقت بها كثيرا، ولكن المرض لم يمهلها أن تتعلق بها أكثر، وشعرت أن عبد الكريم يزيدها مرضا بتصرفاته؛ لذا عرضت عليه مبلغ كبير في مقابل تطليقها، ووافق عبد الكريم ولم تجد بُد من طلب المساعدة من والدتها دون أن تخبر والدها، ووافقت والدتها بشرط أن تلتقي بها وتراها، وفعلت كل ذلك دون علم عبد الحميد فقد كانت تخشى من ردة فعله.

تمكن المرض من داليدا وأصبحت تخشى على ابنتها الوحيدة بسبب نسيانها المستمر دون أي تحسن، ثم نصحها أحد الأطباء أن تسافر للعلاج في الخارج، واستعانت تلك المرة أيضا بوالدتها ولكن دون أن تخبرها بحقيقة مرضها، ولم يبقى سوى ماذا ستفعل مع ابنتها، استبعدت أن تتركها مع والدتها؛ فقد خشيت عليها من والدها أن يؤذيها أو يقهرها كما كان يفعل معها؛ لذا لم تجد سوى عبد الكريم، فتركتها معه وتركت له بعض النقود لينفق عليها منها، على وعد أن ترسل له غيرها كل فترة، ثم اختفت أخبارها عن الجميع ولم يعد أحد يعرف عنها شيئا، ولجأ عبد الكريم بعد ذلك إلى زوجته الأولى لتربي ابنته، وبالكاد وافقت على ذلك في مقابل مادي، ثم غير اسمها بآخر يناسب بلدته؛ ومع الوقت ترك العمل بالاسكندرية واستقر ببلدته ولم يعد يغادرها.

انتهت فتحية من سرد قصة داليدا فقالت نعمة:

- هل يمكنني أن أسألك الآن؟

- تفضلي

- متى علمتِ بوفاة أمي؟

- من والدك، فهو الوحيد الذي كان يتواصل معها بسبب تلك النقود التي كانت تبعث له بها

- ولماذا لم تتدخلي وتمنعيه من أخذي على بلدته، ولماذا لم تتركني أمي معكِ أنتِ طالما كانت تثق فيكِ؟

- لقد كنت وقتها متزوجة حديثا وأعيش مع حماتي التي لم تكن على وفاق معي، والدتك كانت تعلم ذلك؛ لذا آثرت تركِ معه، وهو بالمناسبة عنيد لا يسمع لأحد، ودوما يفعل ما يحلو له

- ولماذا لم تكوني تزورينا؟

ـ لأنني لست على وفاق مع حسنية، والمرة الوحيدة التي استضفتكم فيها هنا حدثت بيننا مشكلة كبيرة

ـ أنا أذكر تلك المرة جيدا، لقد تعلقت بكِ بشدة ولم أكن أريد العودة

ـ وأنا أيضا يا حبيبتي، كنت كل ما أنظر لكِ أتذكر داليدا، لقد كنت أحبها كثيرا، ولكن لم يكن بيدي شيء لأفعله لها أو لكِ في ظل ظروفي

ـ للأسف طوال حياتي لم يكن هناك أحد ممن حولي يحبني حبا حقيقيا

احتضنتها وقالت:

ـ انسي ما مضى يا حبيبتي، ولا تقلقي أنا لن اتركك هذه المرة، ستظلين معي هنا إلى أن يرزقك الله بابن الحلال

بكت نعمة فسألتها:

ـ لماذا تبكين الآن؟

ـ لأن كان هناك ابن حلال بالفعل ومع الأسف خسرته

ـ من يكون؟

ـ سأخبركِ بكل شيء ولكن لا تقاطعينني حتى انتهي

ابتسمت فتحية وهي تومىء برأسها.

****

كان هذا ثالث منزل يخطىء عبد الكريم فيه ظنا منه أنه منزل شقيقته، سأله راجي بنفاد صبر:

ـ هل أنت متأكد أنك تعرف العنوان؟

ـ نعم بالطبع

ـ وهل أنت متأكد أنها شقيقتك؟

ـ يا باشا ماذا تقول؟

قال راجي بتهكم:

ـ ربنا يسترها معنا ونصل على خير.

وصلا لبيت قديم فصاح عبد الكريم:

ـ إنه هذا البيت، هيا معي

دخلا إليه بحماس ثم طرق عبد الكريم الباب ففتحت له جنة وقالت:

ـ أفندم

صاح عبد الكريم:

ـ جنة.. أنتِ جنة أليس كذلك؟

ـ نعم.. من أنت؟

ـ لقد كنتِ صغيرة في آخر مرة رأيتكِ بها، ألم تتعرفي عليّ بعد، أنا خالكِ

أتت فتحية من خلفها غير مصدقة، اقتربت منه وقالت:

ـ عبد الكريم، وأخيرا تذكرت أختك

سألها بلهفة:

ـ أخبريني يا فتحية هل نعمة عندكِ؟

ـ أبعد كل هذه الأعوام..

قاطعها راجي قائلا:

ـ أرجوكِ يا سيدتي أخبرينا هل هي عندك أم لا، أنا قلق عليها كثيرا

ـ ومن تكون أنت؟

ـ أنا راجي، أنا ابن عم أمها ولقد تركها عمي أمانة في رقبتي، ولكن مع الأسف لقد أضعت الأمانة

ابتسمت فتحية وقالت:

ـ أنت راجي إذا

ـ هل تعرفينني؟

ـ نعم تمام المعرفة، تفضل يا بُني

قال عبد الكريم معترضا:

ـ هل يتفضل هو الغريب وأنا شقيقك تتركيني على الباب هكذا؟

ـ هذا ما تستحقه

ثم دلف راجي ليجد نعمة تقف على اليمين وقد سمعت ما قاله، كانت سعيدة بقلقه ولهفته عليها، ولكن بذات الوقت كانت غاضبة منه بسبب معاملته لها القاسية، اقترب منها أمام نظر الجميع وقال بحنو:

ـ نعمة.. حمدا لله أنني وجدتك، لقد ارتاح قلبي الآن لرؤيتكِ

ـ حقا

ـ أنتِ لا تعلمين كيف كان حالي باليومين الماضيين، لقد كدت أجن من القلق عليكِ

ـ كنت تخشى فقط من ضياع الأمانة، أليس كذلك؟

ـ لا.. هناك سببا آخر

كاد عبد الكريم أن يتقدم نحوهما فمنعته فتحية وأوقفته مكانه وقالت:

ـ استمع لعلك تتعلم منه

قال راجي بحب:

ـ لقد كان قلبي تائها يا نعمة ووجدته الآن فسكن أخيرا، أنا أحبكِ وقد تأكدت من حبي لكِ عندما شعرت بالتيه من دونك

قالت تعاتبه:

ـ كيف تحبني وتعاملني هذه المعاملة؟

ـ لم يكن بيدي، تصرفاتك كادت أن تؤدي بي إلى الجنون

ـ ولكني لم أفعل شيئا، أنت ظلمتني

ـ وقتها لم أرى ذلك، لقد كانت على عيناي غشاوة

ـ والآن؟

ـ لقد أدركت الحقيقة ولكن هناك شيء واحد بعد لم أتيقن منه

ـ ما هو؟

ـ ما هو شعورك نحوي

ـ كنت أظنك تعلم، ألم تفضحني عيناي؟

ابتسم وقال:

ـ نعمة.. هل تقبلين الزواج بي؟

أومأت برأسها بالايجاب وابتهج الجميع.

بعد ذلك جلس عبد الكريم مع نعمة واعتذر لها عن كل ما فعله معها، ووعدها أن يتغير للأفضل، ووجدت الاهتمام والحب أخيرا اللذان كانت تبحث عنهما.

وقفت نعمة في حديقة الفيلا تتأمل الفراشات وهي تطير هنا وهناك، شعرت أنها تكاد تطير مثلهم، ابتسمت وأخذت تغني لها ثم قالت بسعادة: هذا هو غدا الذي أتمناه.

تمت